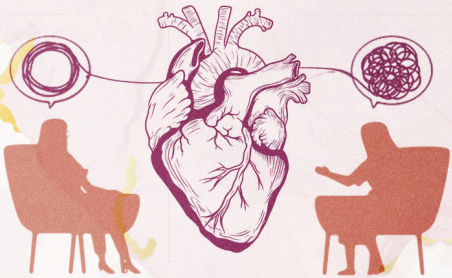

أمسِك عَليكَ قَلبَك

محبوبة محمد سلامة

دار البشير

الطبعة الأولى
1443 هـ / 2021 م

اسم الكتـــاب: أمسك عليك قلبك
المـــؤلـــــف: محبوبة محمد سلامة
موضوع الكتاب: إنساني
عدد الصفحات: 104 صفحة
عدد المـــلازم: 6.5 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 19193 / 2021
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 912 - 2 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

©copyrights

جميع الحقوق محفوظة

دار البشير للثقافة والعلوم

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

أمسك عليك قلبك

محبوبة محمد سلامة

دار البشير للثقافة والعلوم

وَصِيَّة

في أيِّ تجمُّعٍ؛ نادوا على «أَنِيسَة»،

لعلّها تردُّ عليكم؛ فتبلغوها منّي السلام،

وإن لم تجبكم؛ فاستمرُّوا بالنداء عند كلِّ لقاء،

فكم من «أَنِيسَة» حولنا تنتظر أن يُنادَى عليها؛

فتكتَشف أنّ لها في نفسها صوتًا وأنّها تُسمَع.

دار البشير
للثقافة والعلوم

أَمْسِك عَلَيْك قَلْبَك

«أودّ أن أقفز بنفسي، لكن أخشى عليهم بَعدي؛ أن يعيِّرهم أحدٌ بابنتهم المُستسلمة؛ لذلك فكرتُ أن أصطنع السقوط.. أن يكون الأمر كأن أحدهم دفعني بالخطأ ودون قصدٍ منه ودون انتباهٍ مني، فهل عليّ من ذنب؟»

هكذا بدأ كلُّ شيء..!

حوارٌ غريبٌ في أحد المصالح الحكومية، رفقة نجهلها ونفوسٌ لا نعلم عنها شيئًا، إلا أنّ الله قدّر الاجتماع بها دون ترتيب، يبدو الحديث عفويًّا، مضطربًا، مُرتبكًا.

سألتُ بهدوء:

ـ متى الموعد؟

فأجابت باستغراب:

ـ أيُّ موعد..؟!

ـ موعد قفزتك.

أعتقد أنّها لم تتوقع منّي هذا السؤال، مظهري العام أوحى لها أنّي سأحاول إثناءَها عن الأمر.. لكنّي لم أفعل، أستطيع أن أذكر لها

إيجابيات الحياة.. لكنّي لن أفعل، يمكنني أن أسألها عن مشكلتها ومحاولة إيجاد حلٍّ.. لكني لا أفعل.

صمتت الفتاة وبدأتْ في قضم أظفارها، نظرتُ لها طويلًا، وجهها رقيق الطلّة بُنيُّ اللون.. يُشبه السماء ليلًا حينما تلتقطه عدسة مُحترف؛ فتقتنص مشهد نجومه المتراصّة فيه، يمتلئ نَمَشًا كنجمات مضيئة، تنبت من فوق عينيها حتى أسفل شفتيها، مما دفعني للتفكير..

«كم كَذَبَت علينا مجلات الجمال في وضع معاييره وتقييد النمش بالبشرة البيضاء فقط!»

امتدّ صمتها دقيقتين؛ فأمسكتُ يدها التي تقضم أظفارها ثُمّ انحنيتُ على أذنها وهمست:

ـ لا تفعلي، لستِ طفلة.

حرَّكَت كتفيها بلا مبالاة؛ فظهر جزءٌ من ملابسها: عباءةٌ واسعة مفتوحة الأزرار ولا تناسب عمرها، حجابٌ لا يستر إلّا مؤخرة رأسها، حذاءٌ بلاستيكيٌّ مخصصٌ للاستخدام المنزلي، قالت:

ـ لا يهم، لا أحد يهتمُّ على أي حال.

ـ من قال هذا؟! انظري لأي طفل أمامكِ وستجدينه يهتم بما يكفي ليقلّدك.

تلفَّتت حولها في حذر وهي تخفي أصابعها في عباءتها بتوتر، فأطفأتُ لهيب ارتباكها وأنا أُخرِج حاسبي المحمول من حقيبتي:

ـ لا بأس، لم يرَكِ أحد.

أمسكتُ جهازي واهتممتُ به دقيقة أو ثلاث، شعرتُ بنظراتها تأكلني، حتى أنفاسها كأنها تعاتبني على هذا التجاهل. في النهاية أحسستُ استسلامها أمام عدم اهتمامي؛ فتقَوقَعت مخذولةً مخزيّة بعدما فقَدَت الأمل فيّ، حقًّا.. اللامبالاة مِطفأة الإنسانية.

انصَرَفَت عنّي لتجري مكالمةً ما، أمّا أنا فأحتاجُ إلى مراجعة بعض المقالات قبل إضافتها للملف الذي أعمل عليه. ابتعدت الفتاة عنّي قليلًا، وحينها بدأتُ...

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾

نودّ لو أنّ آي القرآن تحيا في صدورنا كما تصل لأسماعنا أوّل مرّة، تزلزلنا.. فلو أنّ تلك الزلزلة التي جاءت في المرّة البِكر بقيَت واستمرّت؛ لما انفلَت الحرف وتاه وسط أشباهه التي لا ندري صلتها بما أنزله الله من كتاب!

هذه الفكرة وحدها تُدفئنا وسط الليالي التي تغلبنا فيها برودة اليأس والتقصير من سرعة انسياب الآيات من أذهاننا، حتى أدركتُ يومًا خبرًا صحيحًا عن الصحابي «عُثمان بن أبي العاص» الذي جاء لرسول الله ﷺ يحكي حالَه وهو حال أغلبنا معه، بنفسٍ تتقطّع خوفًا وخجلًا بعدما صار يقف في صلاته، فلا يدري الآية التي يقرؤها ولا التي تتبعها؛ فأتى سيّدَ المُرسلين وشكى مصيبته التي بين يديه وفزعهُ الذي ملأ صدره وجنبيه قائلًا: «يا رسول الله! إن القرآن يتفلّت منّي!»

فأجلَسه الرسول الكريم أمامه وضرب صدره بيدهِ ضربةً، ويحكي عُثمان أنّه لم ينسَ حرفًا بعدها أبدًا.

إذًا القرآن يغادرنا كما غادر من قبل مَن هم خيرٌ منّا، هذه الحقيقة وحدها كفيلة أن تخاطِب الشيطان الكامن داخل رؤوسنا والذي يُحبِطنا كلّما نسينا آيةً أو سورة مؤكِّدًا:

«لن تفلحوا؛ فلستم أهلًا له»

ونعوذ بالله من وَسوَسةٍ تُطفئ فينا حُب القرآن والجهد فيه، والجهد هنا مبنيٌّ على التجارة؛ فإن أنتَ أحسنتَ في بضاعتكَ جاءتك ريح الكَسب، والتجارة في كتاب الله لا تأتي معها خسارة، فالأعمار محسوبة بعداد آخر، على السورةِ أجر، والآية أجر، والحرف أجر، ومن يجاهد ليقرأَ لا يستوي مع من لا يجاهد، ومن أحسَن النيّة؛ بلغ الغاية بإذن الله.

وأذكر في هذا الحال أنّه كانت لأُمّي جارة عجوز، لم تكن تُنجب، ومع ذلك يناديها الجميع بـ «أم حسام». لا أذكر سبب تسميتها بهذا الاسم، لكن ما أتذكره جيدًا هو أن هذه السيدة كانت لا تستطيع القراءة، تأتي لوالدتي لتحفِّظها قِصَار السور، تحدّثها دائمًا عن خجلها من الوقوف أمام الله تعالى في الصلاة وإعادة السور نفسها: الفاتحة والإخلاص، الفاتحة والناس.

بدأت أمي معها بالحفظِ، كل ثلاثة أيام تُحسن سورة قصيرة، حتى أتى يوم ووجدتْها أُمّي تُسمّع عليها سورة الرحمن، قراءة صحيحة مُجوّدة، ثم يومًا تسمّع سورة الواقعة، ثم بعض أرباع من سورة البقرة؛ كان الأمر كله محيِّرًا حتى حكت أم حسام أن كل يوم يأتيها زائرٌ في منامها يقرأ عليها السورة وهي تقرأ خلفه حتى تُحسنها تمامًا ثم يرحل.

ظلّت المرأة ـ رحمها الله وجعل درجتها في عليين ـ على هذا الحال، تأتي لتسمّع القرآن لا لتحفظه حتى أتاها أجل الله، ولا أراها

إلا امرأة أحسَنَت الظنّ بالله، وهيّأت بضاعتها من صبرٍ وسعيٍ وجهد في الحفظ؛ فرزقها الله من حيث لا تحتسب.

ويحكي عبد الله بن عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟» فقالت: «تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله».

أفلا يعلم الناس أن للقرآن هَيبة، ولحرفهِ رجّة، ولمعانيه جلجلةً في النفس، وهي لأهل القرآن خاصة وللمسلمين عامة؟!

هناك بالحرمِ المكيّ تستطيع أن ترى صنوفًا وأشخاصًا من المسلمين لم تتوقع أن تراهم يومًا، يُقبِلون عليك تفيض أعينهم من الدمع حزنًا، ألّا يجدوا ما يقرؤون، أعجمية ٌ ألسنتهم، لكنّ صدورهم عربية عَطِشَة لحرف من كتاب الله، تلك الحروف التي نُحسِن نحن قراءتها بلا أدنى جهد أو مَعونة.

عندما اعتمرتُ للمرة الأولى وجلست بعدها بالحرم للراحة وفتحت المصحف لقراءة بضع آيات من القرآن، جاءتني بضع ضربات خفيفات على كتفي من فتاة تصغرني بسنتين أو ثلاث.. تتبعتُ ضرباتها إشارة لفمي لم أفهم معناها، حاولت التبيُّن لكن لا كلمات تُقال؛ فتعسّر عليّ إدراك المقصد حتى قالت الفتاة بأحرف لا تكاد تخرج من فمها حتى تتكسّر على أعتابه:

«الحـ ـمـ ـد لله رب الـ ـعالـ ـمـ ـيـ ـن».

ثم أشارت ثانية لفمي، فقرأتُ الفاتحة لها وهي تصفّق من السعادة، أشارت لي أن أعيدها؛ فأعدتها تقريبًا خمس مرات، حتى بكت الفتاة وهي تمسك المصحف وتقرّبه من جسدها موضع قلبها فتدفع بالمصحف فيه دفعًا قويًّا وكأنها تدخل القرآن داخل صدرها عنوةً، فلمّا يئست من المحاولة؛ بكت ثانية وهي تمسك لسانها وتخرجه لي وتغرز به أظافرها حتى تكاد تدميه. ثم تلاشت وسط الزحام!

حسرةً على حسراتٍ هذه الأعمار التي تُنفَق في سبيل العِلم ولا يؤخذ منها مقدار ساعة لفتح كتاب الله!

وفي آخر ليلة من شعبان راسلتني فتاةٌ تسأل عن ثواب قارئ القرآن؛ فأرسلتُ لها:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» [رواه الترمذي].

بقدر سعادتي من حرص الفتيات على الفهم والعلم، يستوقفني الأمر، ففي ظل التفتح وسهولة البحث وإيجاد المعلومات وحرص الجميع على السَّبق في المجالات العلمية والتكنولوجية، تظهر أسئلة لا يجب أن تخرج أبدًا من مسلم يدرك أن القرآن هو المصدر الأساسي لشريعته، وما دام هذا الحال؛ فلا بد أن هناك خللًا وتقصيرًا من أصحاب الأمانات: الرجل في أهله، والمرأة في بيتها، والأخ في إخوانه، والفتاة في صاحباتها، أين سؤال الناس للناس؟!

«ما حالكم مع القرآن؟»

علّموا أولادكم القرآن؛ وهنيئًا لكم أجر صبّ الآيات في أسماعهم وصدورهم لأول مرة، تمنّوه من الله أجرًا ممتدًّا حتى الممات.

تخيّل معي أن تُعلّم ولدكَ أو بنتكَ سورة الفاتحة؛ فتقرؤها في صباحها وصلاتها وقبل نومها، وتعلِّمها هي أبناءها، كل هذا والأجر لكَ، لا ينقص من أجرها شيء، ثُمّ يوم القيامة حين ينادي المولى ﷻ: «اقرأ يا عبدي.. اقرأ وارتقِ ورتّل»، فيقرأ ابنكَ وابنتكَ الفاتحة، فيسأله المَلِك: «من علّمها لك؟» فيقول: «أبي»، فيقول: «أُمّي».

وتأتيك جبالٌ من حسناتٍ لأنكَ علّمتَ ولدكَ حرفًا من كتاب الله.

❊❊❊

رفعتُ رأسي حيث شاشة الأرقام التي تعمل على ترتيب الدخول؛ ما زال أمامي وقت طويل، تتبعتُ يد الفتاة المشغولة بالمكالمة لألَمح رقمها؛ ولمّا رأيتُه أدركتُ أنّي أسبقها باثنين، بدأَت قدمها تتحرك بتوترٍ وكانت قد أنهَت محادثتها، تحمل عيونها لي غضبًا، تَحسِبني عاجزةً عن إدراك مصيبتها التي تنوي، والخلاص الذي تَرتَجي، مرّت خمس دقائق ثُم تكلّمت بنفاد صبر:

ـ لماذا لم تهتمِّي بما قلتُ؟!

نظرتُ إليها بصمت ثوانيَ ثُمَّ هتفتُ:

ـ معكِ حق.

بدا على وجهها أمارات الأمل؛ أكملتُ:

ـ أيُّ أهلكِ ستلبسينه دعوى دفعكِ وسقوطك؟

مات الأمل الذي رُسِم على وجهها وحلّت محله الخيبة وهي تجيب:

ـ زوجة أخي.

ـ لماذا؟!

ـ لأنها مزعجة.

ـ الأخ أحيانًا أكثر إزعاجًا.

ـ حسنًا، أخي.

ـ لديكِ أُمّ؟

ـ نعم.

ـ تُرى ماذا سيكون شعورها تجاه ضياع مستقبل أخيك؟

ـ لَمْ تسأليني عن شعورها تجاه موتي؟!

ـ وما يهمكِ في شعورها عنكِ؟ أنتِ رحلتِ على أي حال، إنما نحن الآن نُفكِّر في شأن الأخ الذي لا يعلم أنه أداةٌ بيدك، وسيبقى أمام أُمّكِ بعدما ترحلين.

سكتت، بدا على وجهها الارتباك، مأخوذةٌ بالحيرة.. مملوءة بها، همسَت:

ـ ستَحزن أُمّي على أخي، إذًا.. زوجتُه أنسب حل.

اعترضتُ:

ـ لكن أخاك سيحزن على ضياع مستقبل زوجته، وأمّك ستحزن على حزنه، وهذا ما نحاول الابتعاد عنه، فدموع الأمهات ذنبٌ؛ لا يغفر الله لأصحابها.

عاد الصمت يلفّنا، عيونها تشبه الغيوم، مُحمّلة بالمطر وتنتظر إذن الله لها؛ فتسكبُ، لم أكن قاسية معها أو عديمة الشعور، بدت لي طفلةً تحاول التشبث بأمل، أن تُحدِث ضجة وتترك خبرًا، فمن أراد الانتحار.. فعله دون إبلاغ أو تنبيه، أمّا هي فترجو أن تجد من يمنعها، من يخبرها ألا تقفز، من يؤكد لها أنها أهلٌ لأن تحيا.

هاهُنا قامت الفتاة من مكانها فجأة، سببت حركتها المفاجئة ليَ اضطرابًا وبعض الخوف منها.. وعليها، وضّحَت بصوتٍ خافتٍ:

ـ أذهب إلى الحمام وأعود، احفظي لي كرسيِّي.

أشرتُ لها برأسي «موافقة»، بعدما اختفى طيفها.. سكتُّ، بدأَتْ تشغل تفكيري قليلًا، قررتُ اغتنام غيابها في تكملة مراجعة الملف ريثما تعود لأتفرَّغ لها؛ وفتحتُه ثانية.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾

رجلان، كلاهما أُهديَ إليه حذاءً جديدًا، فأمّا أحدهما فقد ارتداه من فوره، فرحًا وسرورًا وامتنانًا، وأما الآخر فقد أبقاه لليوم الذي سيخرج فيه ليوزِّع صناديق الصدقة، شاكرًا لصاحبه هديته؛ بأن يشركه معه في الأجر، فكل خطوة يخطوها لله؛ هي في ميزان حسناتهما معًا.

حينما تتدبّر في آية ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ترى عجبًا، تتفاجأ أن الرجل الثاني لم يسمع بهذه الآية من قبل، لكنه يعمل بها عملًا صادقًا، والرجل الأول يعرف الآية ويحفظها، لكنه لم يفكّر يومًا في أن يكون من أهلها، كلاهما أحسَن لكن نية العمل والفعل الذي تبعه صنَعَت له أجرًا آخر غير الذي هُيّئ له من البداية.

«وأهل الشيء»: هم أصحابه الذين يعملون به ويقومون عليه، كأهل الصيام هم الصوّامون لله، وأهل القرآن هم حفّاظه العاملون به، وأهل الإيثار هم الذين يؤثرون غيرهم على أنفسهم ويشركونهم معهم بالأجر، ويعلمون أن أجرهم كاملٌ لا ينقص منه شيء بأمر الله.

نضرب مثالًا أكثر تفصيلًا:

لي صديقةٌ تحب أن تطعم الطعام على الرغم من قدرتها المادية المتواضعة، ولها جيرة خيرٍ لا يملكون زيادة من مال أو طعام؛ فكانت صديقتي كلّما أرادت إعداد طعام لتوزعه في سبيل الله؛ نادت على جارة لها واستعارت منها قدرًا كبيرًا «حَلّة»، ونادت على جارة أخرى وطلبت منها ملحًا، وجارة ثالثة تستعير منها مغرفة، وجارة رابعة تستعير منها الكبريت الذي تشعل به الموقد... وهكذا، تُخبرهم أنها تحتاج هذه الأشياء منهم لأجل الإطعام؛ فيسعدون بها وبمشاركتها لهم على الرغم من تواضُع ما عندهم.

كل ما استعارته المرأة هي في الأصل تملك مثله، لكنها تخرج أدواتها من المطبخ وتُدخل أدوات جاراتها، تؤثرهم على نفسها بأن تأخذ الأجر كلَّه لها وتحب أن تشاركهم فيه، تعلم أن مقدرتهم لا تسع أن يطعموا الطعام، لكن ورُغم أنف ضيق اليد تصدقوا والحمد لله.

لو أخذنا الكثير من واقعنا وطبقنا عليه آية الإيثار؛ لاندهشنا من قدرتنا على أن نُكتَب من أهله، فمثلًا:

الطريق الذي تُصرّ أن تنيره بهاتفك في حين أن أحدهم قد أشعل ضوء شرفته خصيصًا لينيره لك، أغلقْ هاتفَك وسِر حيث أضاء لك؛ فيؤجر على ضوئه.

الهدية التي تستطيع أنت بسبب تيسّر حالك المادي أن تبتاعها وحدك لزميل لك، لكنك تؤثر أن تُشرِك أصدقاءك معك ممن

لا يملكون أن يأتوا بها منفردين، تشركهم معك في أجر إدخال السرور على قلب صاحبهم وقلوبهم كذلك لِما استطاعوا أن يصنعوا بالقليل من المال بهجة عظيمة.

أن تعلم عن مرض فلان وتنبّه معارفك أن يسألوا عنه وأن يبرّوه ويودّوه، ولا تنال وحدك ميزة الزيارة والودّ، فأنت تعلم أن الله عند المريض وتُحب أن يؤجروا معك.

الأمثلة كثيرة والإنسانية التي نراها من حولنا هي ابنة الإسلام، وربُّنا المتفضِّل سبحانه أحسن إلينا أعظم إحسان لمّا قدّر لنا أن نكون بين عباده من المسلمين.

وهُنا يجب الاعتراف أنّ الحياة ليست ورديةً في المُطلَق، والأمور لا تسير بيسرٍ وسهولة في أغلب الأوقات، والنفوس ليست ملائكية الفِعل والفكر، لكن ليبقَ المرء منّا إنسانًا ما استطاع لذلك سبيلًا، ولا يستسلم لمن يقتلون الإنسانية فينا، نُهزَم في الطُّرُقات، لكِن أبدًا لا تُهزَم الطُّرُقات فينا، وعلى الله كلّ موءودةِ حُلمٍ نبَتت من نَبضةٍ لتبلغ الآفاق يومًا، لكن في تُربةِ الأرض دُفِنَت ومضى شأنُها وانتفى أثرها ولم يبقَ منها إلا شهادة الريح أن الإنسانية السويّة تحيا حُرّةً كيفما شاء الله لها وقدّر.

❊❊❊

عادت الفتاة في صمتٍ، وجلَسَت وسمْتُ الهدوء في حضورها، فأنفاسُها كانت هادئةً بما يكفي لتدفعني دفعًا لأبدأ أنا الحديث وقد أكل قلبي القلق، استهللتُ:

ـ ما رأيكِ لو استخدمنا شخصًا خارجيًّا لا نعرفه، عامل توصيل مثلًا؟

أفلحَت طريقتي في نزع عباءة التشتت عن وجهها ويدها وقدمها؛ فاعتدلَت في جلستها وهي تسترسل معي في النقاش:

ـ فكرة عظيمة! وأستطيع أن أطلب منه شيئًا لطيفًا، وهو دليل على أنّي لا أنوي الرحيل. فإذا ما أتى؛ اصطنعتُ أني أستلم منه طلبيّتي وأسقط بظهري من شرفة العمل.

بدا لي تخيّلها طفوليًّا، حوارنا كله ساذجًا جدًّا، يُفتت سماء الواقع تفتيتًا.. مع ذلك صنعتُ لها في الهواء حركة بيدي معناها: «ممتاز، اتفقنا».

ـ لكن مؤكد أن لهذا العامل أُمًّا ستحزن عليه.

كان تعليقها الهامس هذا يُشبه التنبيه، تُحاول أن توقظ إنسانيتي أنا لأعترِض؛ فعلّقتُ بفتور:

ـ وما يعنينا بأُمِّه؟! المهم أن أُمَّكِ لم تحزن.

ـ لكن حزن أُمِّه؛ لن يسامحني عليه الله.

ـ إذًا نختار عاملًا كبيرًا في السن؛ فتكون أُمّه قد رحلت منذ زمن.

فاعترضَتْ:

ـ وماذا عن حزن زوجته وأبنائه؟!

ـ وما يعنينا بهم يا فتاة؟ بالإضافة إلى أنه سيثبت مع الوقت أنه دفَعكِ بالخطأ، وينتهي الأمر تمامًا كأن لم يكن.

سألتني بفزع:

ـ ماذا تعنين بـ «ينتهي الأمر»؟

ـ أقصدُ أن الزمن كفيل أن ننسى كل ما أزعجنا أو سبَّب لنا ضيقًا.

في عينيها رأيتُ خيالات تتحرّك كأنّ عقلها يصنع رؤًى تندفع خلف بعضها في مشهدٍ يُشبه القيامة في كشف ستر الحقيقة وانجلاء كل الخدع، شفتاها ترتجفان وهي تسألني وفي نفسها تعلم الإجابة:

ـ وأنا؟ هل سأُنسى؟!

بدأت الشفقة تجد طريقها إلى نفسي؛ فأرخيتُ عباءة شدتي معها قليلًا:

ـ الطبيعة البشرية تدفعنا للتجاوز حتى نستطيع الحياة، لا يمكن للإنسان منّا أن يحيا وهو يحمل الحزن في قلبه والدمع في عينه والألم في شفتيه؛ لذلك خلق الله لنا النسيان؛ فتصغر الذكريات التي تقيّدنا

شيئًا فشيئًا حتى تختفي تمامًا أو تعلَق البقيّة الباقية منها في أبعد نقطة من الذاكرة، التي نذهب إليها قدرًا إذا ما هزّتنا رياح قوية.. وهذا يحدث أحيانًا وليس دائمًا.

عادت الفتاة بظهرها إلى الخلف وصمتت، سَكَتت سكوتَ خائف، كانت ترتجف كقطة مُبتلّة تحت المطر، أرى الدمع وهو يسقط من عينيها نزولًا لحجابها، ارتفع صوتها حتى جعلَت كلَّ من في القاعة يلتفت إليها؛ فأخرجتُ لها منديلًا وأنا أمسح على كتفها وأهمس:

ـ لا بأس، أيامٌ وستنتهين من تلك الحياة كلها.

ـ لكني لا أريدهم أن ينسوني.

ـ لماذا؟ هل آذوكِ لترضي لهم هذا؟

ـ وهل طلبي أن يتذكروني هو أذى لهم؟!

ـ نعم، فالإنسان تؤلمه الذكريات الحزينة؛ فيُخبئها، على العكس بالنسبة للذكريات الجميلة لأصحاب الأثر الطيب.. حديث مثلًا، فعل رقيق، موقف إنساني، وهكذا، هذه الأمور تجعل الإنسان حيًّا في الحوائط والأركان وليس الذاكرة فقط.

ـ برأيكِ ماذا سيقولون عنّي؟

ـ سيقولون.. «رحمها الله، ذهبت عند رب كريم».

أحسستُ فيها راحةً وهي تردّ:

ـ جميل قولهم.

خشيتُ عليها الإصرار؛ فأكملتُ:

ـ لكنه مجرّد قول، فهم لا يعلمون الحقيقة.

ـ أيُّ حقيقة؟

ـ أن الله سيحاسبك على قتل نفسك.

وكأنّها تسمع الكلمة للمرة الأولى؛ فجحظت عيناها، قلتُ موضحةً:

ـ ربما ستخدعهم خطتكِ بشأن سقوطك، لكن الله يعلم السر وأخفى، يعلم أن نيّتك من البداية هي الانتحار، فقط لم تُعلنيها صراحةً لأنكِ تخشين الذِّكر السيئ لك بعد موتك.

بدا عليها أنها تحاول استيعاب الواقع البشع الذي أُسقِطه على أسماعها تترا، لم أنتظر منها أن تُعلّق؛ أكملتُ باهتمام:

ـ لو أنّك تُريدين رأيي...

نظرت إليّ برجاء ولهفة، كأنّها الجُملة الوحيدة الصحيحة التي ألفظها من بداية الحديث؛ فاسترسلتُ:

ـ لا تقفزي، فسقوطك سيوجعك جدًّا، الدقائق التي ستقضينها ملقاة على الأرض حتى تخرج روحك ستشعرين كأنّها ساعات طويلة لشدة ألمها، فكّري بطريقة أخرى تخفف ذاك الألم.

تجسّد الألم حيًّا في عينيها وشفتيها ويديها وقدميها؛ فخشيتُ أنّي

قد زدتُ عليها الهَمَّ حتى ازداد فيها الغَمُّ؛ فتقوم الآن الآن وتذهب بلا رَجعة؛ فسألتُها لأصرف ذهنها:

ـ ما دُمتِ ستنفضين يدكِ من الحياة وأهلها؛ فماذا تفعلين هنا؟

أخرجها سؤالي من خيالٍ كان يملأ رأسها ويتجسّد في مقلتيها ماءً وفي صدرها نارًا؛ فأجابتني:

ـ أحتاج لتجديد البطاقة.

نظرتُ لها باستغراب:

ـ تمزحين!

ـ تحسبينني أضحك عليكِ، لكني هنا حقًّا لأجدد البطاقة وأستخرج شهادة ميلاد جديدة، وأدفع غرامة مرتبطة بالتجديد.. أريد أن أُنهي كل شيء بنفسي.

فُتِح من خلفنا شباك الغرامات؛ فقامت تدكّ الأرض دكًّا لتبلغ أول الصف وهي تهمس لي مؤكدةً:

ـ كرسيّي، حافظي عليه.

ابتعدت عنّي وتركتني خلفها أضرب الأفكار بالأفعال؛ فلا يصلح مما في رأسي شيء!

ما زال الملف بين يديّ يحتاج أن أُكمله؛ فلمّا رأيتُ أنّ رأسي يشتعل تفكيرًا كان لا بدَّ لي من أن أُشغله؛ فعدتُ للمراجعة إلى أن تعود الفتاة.

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾

والقلب في هذا الموضع جاء بمعنى العقل، كقولهم:

«أما لفلان قلب؟!».

«وما قلبه معه!»، أي: ما عقله معه!

«وأين ذهب قلبك؟»، يقصد أين ذهب عقلك؟

بعض حِسابات الدنيا تُقاس بصورة خاطئة، تُذهِب معناها الأوحد وتقلبه لمعنًى آخر لا علاقة له بالفعل وما يتبعه من أُنس ومؤانسة، ولُطف ومُجالسة، كأن الإنسان منّا ينسى أن معاملة العباد بعضهم بعضًا لا تصلح أن يُقاس عليها معاملة العبد مع ربّه؛ فيزن الأمور بموازين باطلة، ويا لسوء ما يزن! ويُسقِط الأحكام بمحاكم عاجلة ويا لقبح ما يحكم به! ويُفسِد من حيث أراد الإصلاح، ويهدم من حيث أراد البناء!

وها أنت تجد جارةً لك منذ زمن كلّما تصدقتْ في صباحِها؛ عاد مالها إليها في المساء أضعاف أضعاف ما أنفقته في سبيل الله.

وتعرف جارة أخرى تُنفِق نصف دخلها كل شهر في إطعام الطعام للفقراء، ولم يزدد دخلها الشهري جنيهًا واحدًا أبدًا..!

وترى فتاة ترفض أيّ زوج لا يصلِّي، تبكي في صلاتها، وتسأل الله زوجًا يعرفه ويحبه ويخشاه؛ فيرزقها الله في عامها الخامس والعشرين بزوجٍ هو من خير خلق الله.

وأُخرى ترفض الزوج الذي لا يصلي، ثُمَّ تبكي لأجله في صلاتها وتدعو الله له بالهداية والصلاح، وتسأل الكريم رزقًا آخر يعرفه ويحبه، واليوم تُتمّ عامها الخمسين دون زوج..!

ورجلٌ بارٌّ بأمّه وأبيه، حريص على أخته وأخيه، أمينٌ على أهلهِ وبنيهِ؛ فيفتح الله له من الرزق ما لا تسعه خزائن عامة الناس.

وآخر لا يرضى وبيت أحد من أهله بلا طعام، يوزع مدخول يومه على أبيه وأمّه، ويستبقي لنفسه بضع جنيهات وأحيانًا لا يفعل، وللآن لم ينم يومًا شَبْعَانَ..!

تحكي لأحدهم عن فلان الذي صنع كذا لأجل الناس ووزَّع وبنى وأقام، فيسألونك:

ـ «وماذا فعل معه الله؟».

وكأن ذكر المردود المادي هو الوسيلة الوحيدة ليرى الناس أن الله يُكافئ عباده، وأن هذا تمام قبول العمل وحصوله، وما خلا ذلك لا يستحق الذكر..!

وجهلوا أن العمل الطيب مكافأته بدايةً في نفس فاعله.. حلاوة في القلب، ورقّة في النفس، وانشراح في الصدر.

فمن غاب عنه كل ذلك فعمله ممزَّق مردود، والعلم عند الله.

أحيانًا ننسى أن أثر أفعالنا ينبت في القلب لا الجوارح، يعيش المرء منتظرًا المكافأة وقد لا تأتي بالضرورة، وقد تأتي على أي حال. ونغفل عن أن العمل الطيّب حقًّا يُفعَل ولا يُنتَظر من ورائه جائزة، فإن أتت؛ فكَثُر خَير الله وطَاب، وإن لم تأت.. فالحمد لله على كل حال.

ولربما فتح الله لعباده بابًا هو أدرى أنه أكثر عونًا لهم على دوام طاعته واستدامة الخير منهم على إخوانهم، فالله يعلم ما في النفوس من حب الدنيا وإن كان قليلًا، ومِن ضعف الإنسان وإن كان كبيرًا.

فيا كرام!...

لُطفًا! لا تيأسوا، واسألوا الكريم لطفه ورحمته، واشكروه على منعه وعطائه، واحمدوه حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

وقد تأتي نِعم الله ومكافآته على هيئة أرزاق تنبت في النفوس لا في البنوك، يعرفها المرء في نفسه لا في مقعده وسيارته، كأن يُكتَب لبعضهم من الرزقِ ما جعله لله أن يحيَا بين الخَلقِ، كَضِمَادَة، كَوسَادة، كَشَربَة مَاء، كَبَوْح مُستَاء، أو كَقِطعة قُمَاشٍ مُمَزّقَةٍ أُذِنَ لَهَا أن تُلَملِم الدَّمعَات من أَعيُنِ الشَّوقَىٰ، أو لَفحَةِ هَواء تَحمِل دَعوَاتِ الغَرقَىٰ، أو خُفٍّ قَديم علىٰ رَأسِ بِئرٍ؛ يَسقِي العَطشَىٰ.

أن تَأتي أحرفهم كَكَلِمَة تُكَفْكِف الهَمَّ، فتُنادي بِلُطفٍ يُذهِب

الغَمَّ، فتَبقَىٰ نَديًّا كَعِطرٍ يُشَمّ.

أو تكون بوّابًا؛ فتفتح لِلمَحزُونِ الباب

أو تكون مَسجِدًا؛ فيَجتَمِع عِندَك الصِّحَاب

أو تكون تَحيّةً على خجلٍ، لكن لَولَاك لعاش الناس كالأغراب

فلولا خَبِيئة الإنْسَانيّة فِينا؛ ما عُرِف علىٰ الأَرضِ إِنسَان أواب

فوالله لأن تُرزَق مثل هذا؛ فقد فزتَ الفوز العظيم يوم الحساب.

دار البشير للثقافة والعلوم

«أَعجَميّةٌ قُلُوبُنَا»

ينصرف المرء آمنًا مُطمئنًّا إلى نومه، جاهلًا ما صنعه برعونته، لا يدري كيف داس بقدمهِ حيث كان عليه أن يمسح بيده... تدرون؟!

ذلك الإشعار أو التنبيه الذي يأتي كل نصف ساعة مثلًا من حساب والدك على الفيس أو حساب والدتك.. فتفتحه... ثُمَّ تجده عبارة عن خلية نحل على شكل لفظ الجلالة «الله»

أو عصفور مكتوب على جناحه «محمد»

أو طفل صغير أسمر اللون له ذيل لونه أبيض

أو سحابة ذات شكل هندسي معين

أو الولد الذي ركل سارق بيته وأسمعه كلمات الثوّار الأحرار في فيديو مخصوص مُفاجئ بجودة عالية...

أو... أو...

وتجد والدك «يُمَنشِنكَ» في المنشور وتكاد تسمع صوته في التعليق المكتوب أمامك وهو يمسح على وجهك ويهمس لك:

ـ «بص يا بني.. شوف ربنا قادر على كل شيء ازاي؟!»

وتجد المنشور نفسه مكتوب في أعلاه:

«لا تخرج قبل أن تكتب سبحان الله.. وإن لم تكتبها فقد منعك الشيطان»

ثُمَّ تجد أمك قد كتبت عشرات التعليقات التي تحمل «سبحان الله»، و«تُمَنشِنك» هي الأخرى وتحذِّرك:

ـ «والله يا إبراهيم إن ما كتبت سبحان الله.. لمافيش عشاء لك النهارده»

يغفلون هُم ونعلم نَحنُ.. نحن ذلك الجيل الذي تعلّم بالتجربة أن لا شيء على مواقع التواصل حقيقي مئة بالمئة مهما كُتب عليه؛ لذا نعلم أن كل هذه الصور مُعدّلة أو مُمنتجة.. أو.. أو..

المهم أنها ليست حقيقية، لكنّ أهلونا.. أصحاب الفطرة البيضاء، يؤمنون أن مثل هذا يمكن أن يكون؛ فتسكنهم الدهشة..!

تدرون أن أعظم وأجلّ وأكرم ما في الأمر هو أنهم نادوكم لتندهشوا معهم!

ما أرادوا الاستئثار بمثل هذا وحدهم أبدًا، فهذا الانبهار الذي ملأهم أرادوا أن يشاركوكم فيه، ويخبروكم بطريقتهم...

«انظر، كيف أن الله قدير!»

«انظر، فصاحة الطفل أمام الرجال!»

«انظر، كيف ينصر الله المظلوم!»

«انظر، كيف يسبح كل شيء بحمده!»

ثُمَّ يأتي أحدهم بقلبٍ لا يفقه معنى الحبّ، أعجميّ الفهم؛ ويحظر حساب أمه أو أبيه لأنه يزعجه بإشعاراته التافهة ـ على زعمه ـ كل يوم؛ فأنّىٰ لهم أن يحرموا أنفسهم ذلك الخير من ودٍّ وبِرٍّ..؟ كل الخير والله.

❊❊❊

خمسةٌ وثلاثون دقيقة أنتظرُ الفتاة، اكتشفتُ أنّي أُتابع الساعات بعيني لكن عقلي مع الملفِّ يُلملِمه، ستةٌ وثلاثون.. ما زلتُ أنتظرها، حقًّا.. يُبتلى الإنسان بالرقّة كما يُبتَلى بالقسوة والجفاء، وإن الابتلاء بالرقّة لشديد؛ فها أنا أقف عند مصيبة الفتاة وقفتي لنفسي، سبعةٌ وثلاثون.. عادت.

اعتدلتُ، فكرتُ في سبيلٍ ترفع عني حرج ابتداء الكلام، لكنّها فجأة جذبت عباءة الحديث:

ـ لماذا صار الناس كالحيوانات؟!

كان سؤالها فجًّا لكنه حقيقيّ إلى حدٍّ كبير، أجبتُها:

ـ كلٌّ سيلقى ما يستحق في النهاية.

سألَت باستنكار:

ـ وهل أستَحِقُّ ما ألقى؟!

ـ وماذا لقيتِ لتنقمي؟!

نظرَت إليّ بتحدٍّ وبرهَنَت:

ـ عجوزٌ استندَت عليّ وأنا أمام الشباك؛ خشيتُ عليها السقوط وأعنتُها، ولما جئتُ أقدّم أوراقي مدَّت هي يدها وقالت: «أنا أقف أمامك»، الغريب أن الناس الذين رأوني من البدايةِ واقفةً هم الناس أنفسهم الذين أخرجوني من الطابور وأعادوني إلى الخلف وقدّموها هي بدلًا منّي لأنها بكت وطلبَت أن ينصروها عليّ؛ فنصروها.

توقَّفَتْ عند آخر كَلِمة لتجمع أنفاسها اللاتي تفرّقت عنها من فرطِ سخطها وغضبها، وتابعتني بعينها تنتظر منّي تعقيبًا، عدتُ بظهري إلى الخلف بعدما قدمتُ لها زجاجة الماء لتشرب وقلتُ:

ـ وما الجديد، هل تتوقَّعين إنصافًا؟!

بعدم فَهمٍ حرَّكت رأسها؛ فتابعتُ:

ـ هل طلبَ منكِ أحدٌ أن تمدّي يدكِ للعجوز؟

ـ لا.

ـ فلماذا تحاسبينهم إذًا؟!

تحرّكت شفتاها كأنّها ستهاجمني بالكلمات، لكنّها في النهاية أحجَمَت وسكتت؛ هاهُنا استرسلتُ:

ـ وكما لن تستطيعي محاسبتهم على تكاثرهم عليكِ وخذلانكِ؛ فلن يمكنهم أن يشاركوكِ أجر الظنّ الحسن يوم القيامة.

ارتفع حاجبها اليسار بتعجّبٍ واستفهام؛ فأوضحتُ:

ـ يوم القيامة ـ والعلم عند الله ـ سيناديك المولى.. «يا فلانة، لماذا

ساعدتِ العجوز؟ فتُجيبين: ظننتُها تحتاج المساعدة، وأنتَ يا ربُ خلقتني إنسانة تحيا بإنسانيتها؛ فسندتُها كما خلقتني لأسنِد، وساعدتُها كما خلقتني لأساعد، فيسألكِ المولى ـ وهو يعلم الإجابة ـ: وهل أعانكِ إنسان؟ فتُجيبين: لا يا رب». فيُجازيكِ الله بإحسانكِ للعجوز إحسانًا أعظم مما قدّمتِ ويُكافئكِ على أذاها بما يرضيكِ وزيادة. فهل ستُشاركين حينها الناسَ الذين كانوا بالصفِّ معك هذه الحسنات؟!

اعترضَت مُسرعةً:

ـ لا بالطبع.

ـ إذًا.. كما لن تشاركيهم في الآخرة؛ فلا تُحاسبيهم في الدنيا، والجزاء على قدر الصبر.

عاد الصمت يلمع في عينها تفكيرًا من دمع، أكاد أسمع الصوت في رأسها..

«عندي ما ألقى الله به، لستُ فارغةً»

أشفقتُ على حالها، تُشبه الكثيرات من البنات حولنا، تُشبهني أنا نفسي منذ زمن، الصمت الذي يأكلنا رويدًا رويدًا دون جرأة على البوح؛ ويحيا بداخلنا تساؤلٌ تافه أو ملحوظة لا تُذكَر، لكن تبقى قيد الحظر والكتم؛ فتكبر مع الوقت حتى تلتهمنا بلا إجابة ونعلَق في دوامة.. «السكوت من ذهب والكلام من خسارة»، ولا أحد يخسر إلا الصامتون، فعقول الهادئين لا تهدأ.

همسَت إليّ بعد كثير من الثواني التي قضتها في خلخلة يد الكرسي التي تجلس عليه:

ـ لم يعد هناك رحمة بين الناس ولا... ؟! لا أدري اسمها، لكنْ عامةً الناسُ أسوأ مما تظنين.

ـ وفي الناس مَن هم أفضل مما تحسبين، أعرف أُناسًا إذا أصابتهم نفحة من سعادة؛ خرجوا إلى الطريق واشتروا عصائر لكل طفل صغير يمرُّ من أمامهم.

ورأيتُ بنفسي سيدة لّما أخبرتها الطبيبة أنها لن تحمل أبدًا؛ أخرجت من حقيبتها مبلغًا من المال وسلّمته لها وقالت:

«هذه تكفي الـولادة، مساهمة مني لحالة تكون لا تتحمل مصاريفها».

وحضرتُ الصيف الماضي توزيع ثمرات المانجو على كل أطفال المسجد؛ لأن هذه الثمرة وقتها كانت من أغلى الفواكه بالسوق.

بعينٍ لم تعتد الثقة كثيرًا ظلّت تُعارضني دون كلمات؛ فأخذتُ أنا الأبجدية كلّها:

ـ وسمعتُ عن الرجل الذي كلّما مرّ بعجوز تبيع خضارًا؛ اشترى ما عندها كلَّه ووزعه على جيرانه.

وكنت بجانب المرأة التي طلبت من بائع الدجاج أن يبيع الكيلو للناس في هذا اليوم بنصف السعر لكل من يشتري منه، ودَفَعَت هي الفارق ولم يهمها إن كان من سيشتري الدجاج فقيرًا أو غنيًّا.

ووقفتُ أمام الشاب الذي يجلس بالسوق على فَرشَةِ العنب الأصفر وكل من يقف ليشتري منه لا يقبل منه مالًا ويعطيه العنب هدية، وهو يخبر الجميع أن والده مات منذ عشرة أعوام وكان يحب العنب، لذا يوزعه على الناس لعلّ فيهم من يذكر أباه بدعوة.

توقفتُ قليلًا لآخذ قسطًا من الهواء وأجمع ذكرى أو بعض الذكريات، ثُمَّ أردفتُ:

ـ والتقيتُ يومًا في الطريق بطالبة عندي قد أرسلتها أمها لسداد ديون بعض الأسر عند البَقّال لأن أخًا لها مريض، وقد أحسنت الأم الظن في الله وأخذًا بحديث رسول الله ﷺ: «داووا مرضاكم بالصدقة».

وشاهدتُ المرأة التي نالت أخيرًا نصيبها من الميراث، فأتت إلى المسجد وفتحت مصاحف الأطفال وتركت في كل مصحف منهم عشرة جنيهات.

بدأت الابتسامة تجد طريقها إلى شفتيها وأنا أُتابع:

ـ كذلك الرجل الذي يتصدَّق بالمبلغ نفسه الذي يشتري به ملابس زوجه وأولاده.

والمرأة التي تصنع كل يوم طعامًا لجارها الكفيف.

والطفلة التي لا تشتري حلوى إلا وقسمتها بينها وبين ابنة البواب.

وغيرهم الكثير، وكلّهم عرفتهم ورأيتهم وسمعتهم بنفسي.

هاهُنا اعتدلَت الفتاة في جلستها واقتربَت بكتفها منّي قليلًا، كأنّما

يجذبها الحديث وتحرص على ألا تفلت منها كلمة، وكانت بطبيعتها تجلس مبتعدة عني بكل جسدها. همستُ لها وهي بهذا القرب منّي:

ـ أعلمُ وتعلمين أن بعض دروبنا في هذه الدنيا قاسية وظالمة ومُدمّرة بعض الوقت.. كل الوقت ربما، لكن في التفاصيل تكمن الإنسانية التي جُبِلنا عليها، والتي تجعل الأيام تمرّ، والقسوة تمضي، والظُّلم يُنسَى، والتدمير يُرمَّم.

ومع كل ما نقابل.. لن يدوم إلا الإحسان، ويكفينا أنّ الله لا ينسى نفسًا أسعدناها، أو قلبًا أحييناه، أو دربًا مَهدْناه، فهو القائل﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾.

لأول مرّة أجدها تمدُّ يدها إلى أزرار عباءتها وأساور ذراعيها؛ فتضبطهم جميعًا، أشمّ منها رائحةً آدميّة وقد كانت زاهدةً طوال الوقت!

آن الأوان لأختم حديثي الذي أسهبتُ فيه:

ـ لا أحكي كل هذا لأقول لكِ لا سوء في البشر، لكن لأخبركِ أنه وكما آمنتِ بسيئهم.. عليكِ الإيمان بجيدهم، العين التي ترينهم بها تحتاج لبعض التنظيف، امسحي عليها بيقين أن الله خالق الإنسان في أطيب صورة.. وكل ما جدّ علينا هو منّا، ومهما تغيرنا وتبدّلنا؛ فلا بد أن نعود لصورتنا الأولى التي صنعنا عليها الله.

كان الحديث بيننا حلوًا للحدّ الذي جعل وجهها العسليّ يفيض ضياءً.. لذلك وجب عليّ العودة لمصيبتها الأولى؛ فسألتُ:

ـ أعتقد أنك تفضّلين الحبوب المنوّمة... مجموعةٌ كاملة وتُنهي المعضلة.

بَهَت وجهها وأظلَم سريعًا كما أضاء، بدت الحروف ثقيلة على لسانها وهي تُجيب بغضبٍ مكتوم:

ـ لا، لن تصلح الحبوب.

ـ لماذا لا تصلح؟! هي أهون الأمور لو تعلمين.

بعجزٍ بالغٍ سألتني:

ـ ولماذا أهون الأمور؟

ـ لحديث الرسول ﷺ: «من قتل نفسه بشيء عُذب به يوم القيامة»، لذا ألا تظنين معي أن التعذيب بالحبوب أهون بكثير من التعذيب بالسقوط من دورٍ عالٍ؟

حينها أفزعَنا صوتُ امرأة تصرخ بكل طاقتها وهي ترمي بنفسها أرضًا وتُمزّق حجابها هاتفةً:

ـ سُرقتُ! سُرقتُ وأنا في ملكِكِ يا حكومة!!

فزع الناس من حولها، كلٌّ يحاول أن يبتعد عنها وهي تتهم الجميع بلا استثناء، عمّ الصمت المكان وأُغلِقَت شبابيك العمل، ثُمّ أعلن المدير ثبوت الحاضرين بأماكنهم لحين مراجعة الكاميرات، ابتعدت الفتاة من جديد عنّي بجسدها، أشعر برأسها يمتلئ أفكارًا كثيرة على إثر جملتي الأخيرة معها. وما دمنا تعطّلنا بلا أمل هذه الساعة؛ قررتُ العودة للملفِّ الذي بين يديّ؛ فالفتاة لن تبتعد على أيِّ حال.

«تُرى.. هل يشعر الحزنُ بالحزنِ حين يأتينا؟!»

حينما يتدبّر المرء منّا في حروف لفظ «الحزن» يجد عجبًا.

فالحُزن بضم الحاء؛ هو حُزن على ما مضى.

والهَمّ؛ الحُزن على ما هو آتٍ.

والغَمُّ؛ الحُزن المُهلِك.

والحَزَن بفتح الحاء؛ ليس مهلكًا، لكنه حُزن دائم.

لهذا يستعيذ الرسول ﷺ فيقول: «اللهم إنّي أعوذ بكَ من الهمّ والحَزَن» يستعيذ من الحَزن وليس الحُزن، وإذا تفكّرنا في قول الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾؛ نلاحظ قوله «حَزَنًا» وليس «حُزنًا» لأن الموقف الذي شهِد الحَزن لن يعود ولا سبيل لإصلاحه، مضى القتال ولم يلتحق به الثلاثة الذين لم يجدوا ما يحملهم للغزوة؛ فبقوا وذهب الناس دونهم، وبقيت حزنًا دائمًا بصدورهم لا ينقضي، أما لو جئنا لقصة يوسف عليه السلام وقول الله تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ فإننا نلاحظ لفظ «الحُزن» وليس «الحَزن» لأن النبي

يوسف عاد لأبيه؛ فعاد بصره وانقضى الحُزن، بعكس الحَزن الذي لا ينقضي.

ولا شيء يُعطّل حركات النفس أكثر من الحزن، ولا حُزن أقوى من الحُزن الصامتِ، فما يزال يهمس في القلب حتى يحطّمه..!

والحَزن والحُزن بلاءان يدخلان على العبد فيفتّانه فتًّا، ويهدمانه هدمًا، وتوجعه الأيام كأنّها جروح لا تهدأ ولا تُلمّ.

في الأيام الجارحات..

تفتقد شيئًا؛ فتبحث عنه، ما يصعب عليك حينها حقًّا، ويزلزل روحك شعورُك بالحاجة لهذا الجزء الذي تراه، وتعرف أرضه، وتدري مكانه، لكنك... لا... تصله...

في الأيام الجارحات..

تخفض بصرك في الطرقات حين تسير قدمك وسط الأشياء، ففي كلّ شيء ترى جزءًا من شيئِك المفقود، تُسدل وقتها عينك، لأنك تعلم أنها وإن لم ترَ المفقود؛ فستخترعه في كل ما ترى..!

في الأيام الجارحات...

ترضى بالحرب، ففي الحروب هُدنة.. ورُسُل.. ورسالات.. ورؤية، تنتظر الوقت المُستقطع للتداول، لتوقف الدماء، لكن طبول الحرب ما زالت قائمة تُعاندك؛ فتهمس في نفسك.. «لا بأس»، وكُلّ البأس في قلبك..!

في الأيام الجارحات..

نعلم أن صمت الليل لا يدوم، وصوت أذان الفجر حُلوٌ كلُّه، وأن الانتظار جميل في حضرة الرضا، والصبر طعمه مرّ لكن له رائحة الياسمين.

في الأيام الجارحات..

يخبروننا أحبّتنا أن اسمنا يُشبه العسل في مذاقه بين الشفاه، وأن الله الجميل خلقنا في أجمل تصوير، وأن البكاء يزيدنا بهاءً وأن قلوبهم حينها علينا تغار.

في الأيام الجارحات..

يخترعون لنا فرحًا؛ ويفاجئوننا، يصنعون فينا معروفًا؛ وينظرون أثره فينا، يشتاقون لنا، يسمعوننا، يتلطّفون بنا.

في الأيام الجارحات..

يتأكدون أنّ أرواحنا بخير، وليست وجوهنا فقط، فكم من مقتول منّا يسير ولا أحد يدري؟!

في النهاية تمرّ الأيام الجارحات بعون الله ولطفه ويمضي الحُزن كلّه، والحمد لله.

«البيوت تقوم على صبر النساء ورضا الرجال»

حينما يكون الفاصل بين الاستمرار وإفلات اليد شعرة؛ حينها يقف الرجل من نفسه وقفةً لا مزاح فيها ولا مراء، يُعيد حساباته ويتدبّر ما يزرعه من أثرٍ خلفه وما ينزعه من شوك.

فدرجات السلم التي يصعدها وينزلها عند صلاة الفجر والكل نائم وهو يرتل بصوت طيّب آيات من كتاب الله.

وباب البيت الذي يفتحه وهو يقول «بسم الله».

ومفتاح الإضاءة الذي يضغط عليه ويردد «السلام عليكم».

وملابس بيته التي يرتديها هامسًا «الحمد لله الذي كساني ورزقني من غير حول مني ولا قوة».

وفراش سريره التي علِمَها سنةً للنبي ﷺ وهو ينفضها كل ليلة.

ووسادته التي يقول عليها «بسمك ربي وضعت جنبي....»

وغطاؤه الذي يحمل عطر أولاده وأثر نِعم الله عليه.

وعيون الشيطان التي يمنعها عن أهله وأطفاله بذكره لله فيهم ومعهم وبينهم.

كل ذلك يمثل الأرض الطيّبة التي يظل أعوامًا ينشئها، ستشهد

له عند ربه يوم الدين، أنه بصبر وعزم ورحمة، زرع في كل ركن منها اسم الله وسنة نبيه عليه السلام.

وتحكي امرأة عن نفسها:

ـ لي عادة ـ منذ زمن ـ بسيطة أُحبّها؛ حينما أدخل المطبخ ـ والحمد لله على عادة تقربنا إليه ـ، أُشغّل هاتفي على الرقية الشرعية، ثُمّ يعمل الملف الصوتي تلقائيًا على مجموعة صغيرة من سور القرآن الكريم قد أعدتُها مسبقًا للقارئ «ناصر القطامي» وهي التلاوة التي أجدها تنزل على قلبي لا سمعي؛ فأقرأ معه قليلًا وأنا أعمل، أسبقه قليلًا.. ويسبقني كثيرًا..

يمرّ الوقت وينتهي عملي في المطبخ من تنظيف وترتيب وإعداد الطعام، ووالله إنه ليُخيّل إليّ أحيانًا أن مذاق الآيات قد امتزج بالأكلة والقصعة والرائحة؛ فأجدُ نكهةً طيبة مضافة لكل قطعة!

كذا من عادتي أُحبّ مزج ألوان المائدة واختيار أطباق تُظهِر جمال الطبخة وطريقة تقديمها، لكن لا شيء من هذا يشفع للنكهة لو كانت خربة، وما وجدتُ شيئًا يتمم مذاق صنعتي ويصلحها كذكر اسم الله عليها وآياته، كأن مصاحبة القرآن وحده للطبخةِ؛ تخرج شيئًا آخر، صُنعًا آخر، حُبًّا آخر.

وتقول أُخرى :

ـ شيءٌ من الامتنان يسكن الروح حينما تجد أن الملك يوم أن خلقها.. قدّرها بين عباده أنثى، وحينما أكرم الرحمن بفضله؛

فجعلها امرأةً حرّةً تملك أن تدخل مطبخها فتصنع فيه صنعةً تذكر اسم الله في أولها وتحمده سبحانه في آخرها، وتقول بلطفٍ: «هنيئًا لآكلها وشاربها».

من العظيم أن نفرح فنجد السكّر يشاركنا، ونحزن فنرى في الملح يدًا حاضرة، ونُطعِم ونُطعَم، وأن يُنظَر لصنيعة يدنا بدهشة ويقول قلب طفل صغير: «ما أشهى الطعم وأعجبه!»

يستطيع الرجال قول قولة الحُبّ، وتملك النساء همسه، أمّا السيّدات فوحدهنّ يصنعنه.

وأعجب ممن ترى في دخول المطبخ مذلّة! أو تجد إهانة في قولٍ أحمق أن المرأة لا تصلح إلا للمطبخ، فما لم يعرفه ذلك الحُمَيق أنه بسوء قوله يختار امرأة من اثنتين...

فالمرأة شاءت أو أبت فهي تصنع صنعتين، واحدة إن رأت نفسها مُكرَهةً؛ وهي صناعة ما لا روح فيه ولا حياة معه، مجرّد وصفة يملك أي إنسان أن يأتي بها.

وواحدة إن رأت نفسها حرة الفعل والصناعة؛ فتخلق حينها مع كل طبخة خلقًا آخر من قلبها، وأن مطبخًا تخطو فيه أنثى؛ هو مطبخٌ ازداد بها فنًّا ورِقة، فالحمد لله أن قدّرنا بين خلقه كما قدّرنا.

في بيوت المسلمين حسنات مخبوءة، وأراض طاهرة، وذكريات في الأركان من صبر ورضا واستغفار وتوبة وقيامة للفرج، وثبات

على الإيمان، وسقوط واعتدال وعون من الله الكريم. والعاقل من اغتنم الفضل الذي أعطاه الله، ولم يفرّط، فالنِّعَم تدوم بشكرِ الله عليها لا بالزهدِ فيها، والصبر والرضا جنديان من جنود الله؛ طوبى لمن رُزق أجرهما، والحمد لله رب العالمين.

❊❊❊

ـ لا أعتقد أن هناك ما سُرِق.

هكذا علّقتُ على حادثة المرأة؛ فالتفتت الفتاة إليَّ مُستنكرةً:

ـ لماذا؟!

ـ لأنّها تنظر إلى باب غرفة الكاميرات المُغلَق فقط، ولا تتبع الناس من حولها تتفحصهم؛ لعلّها تُفلِح في اصطياد السارق من نظرته أو حركته أو كلمته، وهذا تصرّف من لم يفقد مالًا لكن فقد شيئًا آخر.

بدا على ملامحها الاقتناع برأيي وهي ترقب المرأة في صمت، بعد خمس دقائق خرج أحد الرجال صائحًا:

ـ لم نجد شيئًا بالكاميرات؛ تعالي انظري بنفسك.

تحرّكت المرأة بسرعة وظهر حينها أنّها تجذب يد رجل إليها، تُقيّده بقيدٍ من ذلّ يتجلّى في عينه وظهره؛ فيسير بجانبها مضطربًا مُرتبكًا، نودي فينا:

ـ فليفتح كلّ واحدٍ حقيبته للتفتيش.

لم أهتم بفتح حقيبتي، كنتُ أشعر أن المرأة تريد أن تجد شيئًا ما بالكاميرات غير مالها المسروق، لم يمرّ وقتٌ كثير حتى سمعنا صراخها من داخل المكتب وهي تلعن الرجل الذي كان معها، ثُمَّ خرجَت من بيننا تؤذيه بيدها وقدمها ولسانها!

أَعينُ الجميع تسبق أسماعهم، يحاولون الفهم، بعد دقائق رحلَت المرأة من المكان تجرّ زوجها كالذبيحِ وراءها وتُقسِم له بأغلظ الأيمان أنّ يده التي رأتها بنفسها في الكاميرات وهو يضعها على المرأة التي كانت من خلفها في الصف ستقطعها له بعَونِ الله بعد وصولهم للبيت.

ها هُنا ولأولِ مرةٍ أسمع جلجلة ضحك الفتاة بجانبي.. «صوتها حيّ!»، هكذا حدثتُ نفسي عنها، ما زالت تضحك؛ إذًا ما زالت حيّة!

تُقاس حياة المرء بسعادته لا بحزنه، وتليق بالإنسانية أن تُرى في الابتسامة لا في الدموع، في الرِّقةِ لا في القسوة، وإنّ حياةً صغيرةً من جمال تغلب ألف مرة عمرًا طويلًا من قُبح.

بعدما هَدَأت علّقتْ:

ـ كلّ هذا لأجل أن تضبطه متلبِّسًا!

ـ وأكثر، ففي سبيل الحقيقة قد نبذل كل ما نملك وأحيانًا ما لا نملك.

ـ خُدِعتُ فيه، كان وجهه مُتأثرًا بالحزن وهو يسير بجانبها قبل رؤية الكاميرات، بدا أنه قلقٌ عليها، مشغولٌ بأمرِ ما سُرِق منها.

استتر الكلام بيننا وراء عباءة الصمت من جديد، للحديث شُعبٌ لا بدَّ أن تطأ.. ومما أرى؛ فأرض الحوار القائمة بيننا يصلها الهجر الآن الآن، سألتُها:

ـ ما رأيكِ بالشابة التي تجلس أمامنا؟

أثار الأمر اهتمامها؛ نقلت نظرها إلى الشابة؛ تتلكّأ على وجهها قليلًا وملابسها قليلًا ويدها التي تلعب بها في هاتفها طويلًا، فلمّا انتهت من فحصها وأعمَلَت فيها النظر؛ التفتت إليَّ وكأنّ حالها يتبجّح.. «إني قد أحطتُ خبرها وعرفتُ جملة حضورها».

قالت بثقةٍ:

ـ تبدو مدلَّلة والديها، انظري إلى ملابسها الطفولية بما لا يتناسب مع عمرها، النظارة الشمسية التي لم تخلعها منذ أن رأيتُها، السماعة اللاسلكية التي تضعها في أذن واحدة، ويدها التي لم تفارق الهاتف، حتى أن رجلًا كبيرًا وقف أمامها منذ دقائق ولم تهتم بالقيام له مع أنها أصغر الجالسات هنا!!

ملتُ على أذنها وهمستُ:

ـ يبدو أنّكِ لم تلحظِي العصا التي تسندها على ركبتها، وأن رأسها لا ينحني باتجاه الهاتف لتتابع ما تفعله به مع أنّ

أصابعها تتحرّك عليه بنقرتين كل بضع ثوان، ولم تدركِي كذلك أنّ هناك مرافقًا لها يضع حبلًا متصلًا بين إسورة ساعته وبين ذراع حقيبة الفتاة!

ابتعدت بجسدها عنّي وأجمعت كل انتباهها على الشابة حتى لم يعد يعتريها شك ولا شبهة في أن الفتاة عمياء، والهاتف بين يديها يعمل بخاصية تساعد المكفوفين على التواصل والاستماع والاتصال، لم أعطها الفرصة في الشرح أو الإيضاح؛ سألتُها من جديد عن رجل يجلس بالكرسي جانبها:

ـ هذا الرجل. برأيكِ ما الذي أتى به؟

عادت بظهرها إلى الخلف واصطنعت أنها تضبط حجابها وتلملم ثيابها؛ أطالت تتبعه ومتابعته حتى انتفى الشكّ من نفسها وثبت عظيم فكرها وأجابت بصوتٍ خفيض باتجاه أذني:

ـ يبدو مستريحًا جدًّا في جلوسه، وهذا دليل على أن الوقت أمامه ما زال طويلًا، يضع بطاقته الشخصيّة في يده اليسرى، ولمّا لمحتُها وجدتُها سارية المدة؛ إذًا هو هنا من أجل شهادة ميلاد وليس استخراج البطاقة.

بزهوٍّ انتهت من حديثها والابتسامة الواثقة التي ملأتها فخرًا واعتزازًا تنافس النَّمَش المضيء في وجهها، فأشرتُ لها بسهمِ ظَنٍّ أصاب كبد اليقين في مقتلٍ:

ـ وماذا عن رزْمَة منشورات التعقيم التي يضعها على قدمهِ اليمنى، وأنّه في الحقيقة لا يمتلك رقمًا في يديه كما نفعل نحن وحتى لو كان يحفظه بجيبه؛ فالحقيقة التي متأكدة أنا منها هي أنّه لم يقف ليحصل على رقمٍ من بداية وصوله المكان، لأنّي رأيتُه منذ لحظة وصوله؛ إذًا لن يستخرج شيئًا من هنا، وأحسب أنّه ما هو إلا مندوب مبيعات لمنتجهِ ولا زيادة.

مأخوذةٌ بالكلمات والواقع كان لسانها يقف على أطراف شفتها يحاول أن يجد حرفًا يبدأ به، هذه الحيرة.. كلّ الحيرة لاحت في عينها واهتزاز شفتها، في النهاية همسَت:

ـ لماذا تفعلين هذا؟

اصطنعتُ الجهل سائلةً:

ـ وما الذي أفعله؟!

بغضب خفيض الصوت أجابت:

ـ هذا، هذا الإحراج الذي تضعينني فيه! سؤالك عن الناس من حولي ثُمَّ إظهاري بمظهر الحمقاء التي لا تفهم! لماذا تفعلين بي هذا؟!

ـ كنتُ أحاول أن أُخبركِ شيئًا مهمًّا لكنكِ استعجلتِ الخبر.

بانفعالٍ هتفت:

ـ وما هو؟

مددتُ يدي تجاه يدها القريبة منّي ونطقتُ:

ـ إنّ ظاهر الناس ليس كباطنهم، هذه الفتاة أمامكِ كفيفة وأنتِ حسبتها مدللة، والرجل بجانبك مندوب مبيعات وأنت حسبتهِ عميلًا هنا. وأنا... أنا ما ظنّكِ بي؟

أخرسها سؤالي الذي لم تتوقعه؛ فطال سكوتها، قلتُ:

ـ انظري! حاسوبي المحمول وهاتفي الحديث وحقيبتي المستوردة، حذائي يلمع وملابسي مهندمة، وفي محفظتي ستجدين ألف جنيه وبعض الفكّة.. فهل ترين في المكان هنا من هو أغنى منّي وأعظم شأنًا؟

باستسلامٍ أجابت:

ـ لا، لا يوجد.

ـ ما رأيكِ إذًا لو أخبرتكِ أنّي في الحقيقة ابنة بوّاب، وفي عمارتنا سيدة تلمّع حذاءها كل يوم وتضع قماشة الملمِّع على السور، لكن اليوم سقَطَت القماشة عندنا في الدور الأرضي؛ فاستخدمتُها لتلميع حذائي الذي أخجلني اتساخُه، وملابسي المكويّة هذه لأنّ أُمّي وظيفتها الثانية كيّ الملابس بأحد الفنادق؛ لذا تأخذ ملابسي معها كل يوم وتعيدها لي مكويّة ومهندمة، وأمّا عن المال بمحفظتي فهو من أجل سداد فاتورة التليفون لأحد سكان العمارة، والحاسوب هذا استعرتُه من الفتاة الجامعيّة بالطابق السابع في عمارتنا لأكتب

عليه بحثًا لمدرسة أختي بعدما وعدتُها بشراء طلباتهم المنزلية لمدة شهر دون أجر. وفي النهاية هذه الحقيبة المستوردة التي أتباهى بها جاءتني هدية بعدما نظفتُ منذ شهرين منزل سيدة خليجية تنزل مرة كلّ عامين.

زالـت عن وجهها نظرة الغضب وحلّت محلّها الخجل والإشفاق؛ فملتُ عليها مُضيفةً:

ـ لا شيء كما يبدو أبدًا، فلا الضاحك يطير سعادة، ولا المحزون يفيض غمًّا. ما الناس إلّا خبايا مستورة.

كان الدمع ينزل من عينها رقراقًا مهراقًا، يبلغ قلبي قبل أن يبلغ صدرها، يغسل لوعتي قبل أن يغسِل عينها، تبدو ضائعةً تائهة، تتخبّط داخلها المعاني والأفكار، المظاهر والسرائر، يسيح نظرها بالأرضِ وفي الأرضِ لكن أحسب أنّ قلبها مملوء بما لا تعرفه عن نفسها، تُرى من صنع فيها هذا التيه وأسكنها دروبه؟!

تُذكّرني بالفتى الذي أتى ليعمل مع أبي يومًا، كان جاهلًا بالحياة نازعًا عن نفسه سرورها وحبورها، شروقها وغروبها، ممتنًّا أنّه حيٌّ لكنّه لا يحيا، شاكرًا للجميع معروفهم فيه لكنّه لا يريده، ذهبَت الدنيا من نفسه وذهب هو عنها، كان غريبًا؛ كلّما سار في الطُّرُقاتِ تشعر كأنّ نفسُهُ تنسلّ من نفسِهِ رويدًا رويدًا، فتجد من إثر قدمه ما يشبه الورد الأبيض وتغطيه رائحة الياسمين؛ فتحسبه لقمةً ليِّنةً،

ثُمَّ ما تلبث أن تجد للوردِ الأبيض شوكًا قاتلًا لا يُبقي على شيء ولا يهتمُّ لشيء!

قال القوم من أهل شَارِعهِ أن مرض روحه هذا لا شفاء منه ولا علاج له، وأنّه تسمّمَ يومًا بحديثٍ صُبَّ عليهِ من حبيب؛ فشربه على الإفطار وكان من قبل صائمًا، ومن يومها لا يعرف عن قلبهِ إلّا أنه سُكِبَ منه كلّه ذات غفلة..!

وهذه الفتاة هنا الآن تُشبهه كأنّها هو، وكأنّه هي، مسكوبةٌ مصبُوبةٌ منسيَّة.

انتبهتُ لساعة يدي، يمضي الوقت سريعًا وعليّ متابعة مراجعة الملف.. والفتاة تحتاج إلى الصمت قليلًا على أي حال.

«وتجبّر فيها عبادٌ على عبادِ الله أكثر»

كنتُ في وقتٍ ما.. أسمع عن فتاة يتحدّث عنها جيرانها أنها من عباد الله المتجبّرين في الأرض، يؤكّدون:

«ومن دلالات عقوقها أنها كانت تزور أمها مرة واحدة في الأسبوع ولا زيادة، وفي هذا اليوم إذا وقفت في المطبخ تصنع شيئًا أو تغسل شيئًا؛ أفسدَت بحمقِ فعلها وغباءِ قلبها السباكة!

وإذا قررت تنظيف البيت تهاوى أثاثه برعونةِ حركتها وسوء نيتها كأن لا خشب له!

وإذا غسلت الملابس.. خرج أغلبها ممزَّقًا!»

فكان الجيران يحكون أن مجيئها شؤم، وجلوسها شؤم، وتنظيفها شؤم..!

لكن الغريب أن بيتها هي جميل جدًّا، وزوجها كريمٌ جدًّا، حتى حماتها... كانت تودُّها وربما تصنع لها الطعام وترسله حتى بابها!

فظنَّ جيرانها أنها سَحرَت زوجها وأهله.

مرّ زمان ثم أتى مرضها الذي توفّيت فيه، فجلس حولها بعض أحبتها، سألها أحدهم:

ـ «أيّ العمل كان أنفع لك؟»

قالت:

ـ«زيارتي لأمي».

فقالت إحداهن مستنكرة:

ـ «كلّنا يزور».

لكن المرأة ردّت بين شهيقها وزفيرها:

ـ «لكني كنت أدعو الله ألا يشقَّ على أمي.. وأن يؤجل أصعب الأعمال إلى يومي، فكنتُ أذهب لعندها وأرى أن المواسير صدأت وتكسّرت لكنها قائمة بقدر الله، فإذا ما اقتربتُ منها قلتُ: «ها أنا يا رب، اتركها لي»، فتسقط أمامي كأنما لم يحملها شيء إلا الهواء، ثم أُرسِل أحدهم لإصلاحها، وإذا ما غسلتُ الملابس وجدتُ ما تمزَّق فيها.. فأحمد الله أنه في يومي حتى أخيطه لها، فأمي امرأةٌ ذهب أغلب نظرها فأنّى لها أن تمسك المخيط وحدها؟!».

هَاهُنا وفي مثل هذا يتساءل المرء عن دنيا الناس...

«ما ضرّهم لو أحسنوا الظنَّ؟!»

حقًّا.. القلوب الإنسانيّة شَوّافة؛ تُدرِك بالنبض ما لا يُدرَك بالبصر، والصدق.. تميزه الروح لا السمع، والتغافل عقيدة المحبين وحدهم.

لكنّ الإنسان يعطّل إنسانيته ويترك قلبه معلّقًا بسمعه وبصره وعقله؛ فيغلبه الظنّ تارة، والغيبة تارة، وإطلاق البصرِ على عورات

الناس تارة، ولا يكتفي بظنّه فيكتمه بين نبضه ودمه.. بل يجعله حيًّا واقعًا وينقله بين الناس عن الناس؛ فتسير بينهم لا تدري هل من حولكَ قلوبٌ أم تماثيل؟!

ويحكي الإمام «أنس بن مالك» عن قومٍ رآهم وأدركهم لم تكن لهم عيوب؛ فعابوا الناس فصارت لهم عيوبًا، وأقوامٌ غيرهم كانت لهم عيوبٌ؛ فسكتوا عن عيوبِ الناس وكتموها؛ فنُسيَت عيوبُهم.

وفي التغافل حياةُ الإنسان، يقول الإمام ابن حنبل عنها «العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل».

فما ضرّ الناس لو أنّهم سكتوا عن الناس وكفّوا أيديهم وألسنتهم وظنونهم؟!.

«ثُمَّ ينفرط العقد»

يقول الكُتّاب أن اللغةَ وُجِدَت لتُتَرجِم الصمت، فمثلًا..

تحكي عن الحركة وتقول:«جاء وجلس وقام وسار...».

تحكي عن الشوق فتقول: «تاق وجُنّ وهاج وماج...».

تحكي عن الرِّقّة فتقول: «حسّه وحرفه ورصفه ونفسه...».

تحكي عن الحُب فتقول: «آمن وأيقن وأدرك واعتنق...».

ثُمّ تقف اللغة عاجزة أمام الدمع؛ فلا تحكيه إلا قهرًا في عبرات لا يحتملها ورقٌ، ولا تجد مِن هاجرَ لتزمزم الماء؛ فتُمسِكه!

حينها يبحث المرء عمَّن يأخذ دمعه كلَّه ويحفظه في نفسه بين جنبيه، ويُزمزِم بحرفٍ أو كلمة كل العبرات المسكوبة دون لُمْلَمَة، وللأسفِ...

إذا تتبع المرء أغلب منشورات المواقع الإلكترونية مؤخرًا سيرى فزعًا؛ كلهم ينبهونك إلى أن تنسحب من أي علاقة يكون فيها طرف ما متألمًا أو خائفًا أو أسيرًا لأي شعور آخر قد يتشابه مع ما سبق أو يختلف.

في النهاية يتفق الجميع على أن وجود هؤلاء الأشخاص في حياتك هو معول هدم لا معول بناء...!

«لذا إياك أن تسمح للعلاقات السامة أن تسيطر على حياتك».

هنا نتفق جميعًا على المصطلح لكن نختلف في المعنى، فعلى أي أساس قيَّمتَ صديقك أنه علاقة سامَّة ويجب التخلص منه؟!

ما معيار التقييم هنا؟!

لا تجد معيارًا واحدًا تبني عليه نظريتك، هي فقط محض قناعات شخصية خلاصتها:

«ابعد عن الشخص النكدي أو الحزين لئلا يعديك».

دعوى صريحة للاستسلام، اترك يد من شئت ولا تكافح لأجل أحد.

الصديق الذي يتغير عليك فجأة مرة أو مرات، وهو عكس عادته وشيمته، ابتعادك عنه محض خيانة.

لا تستمعوا لأرباب الأقوال...

«اليوم مش ناقص كآبة، دا احنا بنعدّيه بالعافية»

يا كرام! اليوم ينقصه صديق يزمزم الغمّ ويسأل عن الهمّ، الحزن حينما ينقسم على قلبين؛ يهون، والوجع حينما يُحكى؛ يقل، والدمع حينما ينزل أمام حبيب؛ يجفّ.

لكن أن ينصرف أحدنا عن الآخر لأن كثرة الهموم تُغرق السفينة!!!

فعلى كل حال السفينة ستغرق، بالهمِّ أو بدونه.. السرّ يكمن في البحر وموجه.. وكلاهما بيد الله.

والله ينظر لقلب عبده، فإن وجده غافلًا مستغرقًا في همّه؛ نظر إلى قلب صاحبه.

وهذه الخبايا بين القلوب وبعضها بعضًا، هذه الوقفات التي لا يقفها إلا الأحبة في الله، لا تموت أبدًا ولا ينمحي أثرها، ورُبّ يد مددتَها لغيرك؛ رفعت درجتك عند الله!

فلا تستصغروا الكلمة، ولا تستحقروا أصحاب الأحزان، ولا تبخلوا بالودّ واللطف، فكلاهما رزق، ولا تدري لمَ رحمك الله من الهمّ وكتبه على صاحبك، لكن لعلَّه رأى فيك الصاحب الذي يصلح أن يكون مُعينًا لصاحبه على نوائب الدهر، فكونوا أهلًا لرحمته سبحانه.

«الإنسانيّة المنطوقة في الأفعال»

أعرفُ أُناسًا إذا ما دُعُوا إلى طعامٍ؛ صاموا.. ليفطروا عند داعيهم، وعندما سألتُهم، قالوا:

«لينال صاحبنا أجرين: إطعام الطعام وإفطار صائم».

وسمعتُ أُناسًا إذا ضحكوا؛ همسوا «الله، الله»، وعندما سألتهم، قالوا:

ـ «نذكره في الرخاء حتى لا يثقل على لساننا ذكره في الشدة».

ورأيتُ أُناسًا إذا أظلم الليل؛ أناروا شُرفاتهم، وعندما سألتهم، قالوا:

ـ «لتضيء طريق المصلِّين فجراً».

وقابلتُ أُناسًا إذا ذُكِر الرسول الكريم أمامهم؛ حكوا سنّة مهجورة من سنته، هكذا دون استئذان، تجدهم يتحدثون:

ـ «صلوا على رسول الله، أتعلمون أن نبينا كان يفعل كذا.. حين كذا؟ ...».

وأحببتُ أُناسًا كانوا إذا سمعوا بكاءً؛ دعوا لصاحبه بالسكينة، وإذا رأوا أحبّةً؛ دعوا لهم بدوام الحُبّ، وإذا ساروا بطريقٍ؛ ابتسموا ولو كان في صدورهم ألف هَمّ، وإذا سُئلوا؛ أعطوا ولو كان بيتهم لا يحوي درهمًا.

وناظرتُ أُناسًا كانوا إذا اشتد بنا النقاش توقفوا وقالوا: «أُحبّك».. ثُمَّ أكملوا النقاش.

وعانقتُ أُناسًا إذا رأيتهم حسبتهم كالورق من رقتهم، لكن كان في عناقهم دفءٌ ورحمة.

ومررتُ بأُناسٍ إذا ما حضروا حزنًا أو غمًّا، قالوا:

ـ «بسيطة، هو على الله هيِّن».

ثُمَّ سمعوا وما ملّوا، وطيّبوا الخاطر بلمسة أو كلمة.

تعلّمنا الحياة دروسها بالصفعات، لا تمسح على رؤوسنا ولا تشد آذاننا، ولا تمزّق كُراسة الواجب أمامنا وتطلب إعادتها، فقط تأخذنا بقوة وتصبّ في صدورنا الدرس وراء الدرس حتى نسقط تحت ثِقَل الدروس والعِبَر.

وننسى أننا في حياة بعضنا لسنا مجرد عدد، ولكننا عدةٌ وعتادٌ أمام الصفعات، والركلات، والآلام بكل صنوفها. فنجد بعض النفوس وكأنّ أحدهم نفخ في صدورهم ريحًا من الجنّة؛ فترى شيئًا من نعيمها في حديثهم وسمعهم ومشيهم وظنهم، وهذا رزق الله لنا ولهم.

فلُطفًا.. لا تبخلوا،

ووالله لا أحب إلى الإنسان من أخيه الإنسان.. كحبه وشوقه ولهفته للطفه معه.

وما أعظم الأثر الذي يُصنَع من لُطف، وينشأ في كلمة، ويحيا في فعل!

وما أكرم الخالق!

***

كانت مُفاجأة مدوّية للفتاة بجانبي حينما رأت الشابة الكفيفة التي تجلس أمامها تقوم من مكانها وتضع هاتفها بجيبها، تخلع النظارة الشمسية لتنظر في ساعتها ثُمّ تعدل شعرات رأسها برقّة وتبتسم لشابٍّ يمرّ من أمامها بلطفٍ زائد وهي تتحرّك باتجاه نافذة العمل بعدما نودي رقمها. وبكلِّ عتاب الدنيا هتفَت بي:

ـ لم تكن كفيفة! والشاب بجانبها لم يربط حقيبتها بمعصمه، ولا تمتلك الفتاة عصًا لتساعدها في السير، كلّ ما قلتِه لم يكن صحيحًا أبدًا!

حاولتُ أن أتماسك أمام هجومها القويّ، لكن صوتي أتى مهتزًّا بعض الشيء:

ـ صدقتِ، لم يكن صحيحًا.

نظرت إليَّ بتعجب وكثير من الاحتقار؛ أكملتُ ببعض ثبات:

ـ لكنكِ لم تحاولي التأكّد على أي حال، أنا لم أقصد خداعكِ أبدًا.

ـ وماذا تسمّين هذا إذًا؟!

ـ سيناريوهات محتملة.

بدا عليها عدم الفهم؛ فأوضحتُ لها وقد ضبطتُ رجفةَ صوتي:

ـ ربما هي كفيفة وربما لا، ربما هو مندوب مبيعات وربما لا، ربما أنا ابنة بواب وربما لا. على أيّ حال أنتِ اكتفيتِ بظنّكِ الأول من نظرة واحدة لهم، ولمّا غيرتُه أنا لكِ اكتفيتِ بكلامي دون تثبّت. أنتِ.. أنتِ وحدكِ من تسمحين بخداعِ نفسكِ وإقناعها أن من حولكِ أحسن حالًا.

كانت جملتي تشبه الصفعة أو هكذا بدا لي لأنّ وجهها احمرّ بشدّة؛ فخفضَت رأسها وهي تخفي عينها عنّي وتعود بظهرها إلى كرسيها، تُلملِم حجابها على كتفها وتضمّ عباءتها إلى جسدها كأنّما أحسّت فجأةً في نفسها عريًا وخجلًا!

ـ كُلّنا لدينا حربًا نخوضها، شئنا أم أبينا، ومَن رَحِمهُ الله تعالى جعل حربه حيث يمكنه أن يرفع سيفه، أو قوسه، أو عصاه، أو صوته، أو حتى قلمه.

كان هذا استهلال حديثي مرة ثانية مع الفتاة، هذه المرة عليّ أن أشرح لها الأمر بصورة مباشرة، واضحة وجليّة، ولمّا تأكدتُ أنها تستمع بكل ما أوتيتْ من جارحة؛ أكملتُ:

ـ لكن أصعب الحروب ليست التي يبذل الإنسان فيها روحه أو حريته أو ماله، بل الحرب التي تنشأ بين جلده ودمه، قلبه ونبضه، عقله وهمسه، هاهُنا تكون عظمة الحرب وقسوة الهزيمة، وقوة

القتال.. والمعنى الحقيقي الوحيد للغنيمة.

ملأَت الفتاة صدرها بالهواء ثُمَّ أخرجته دفعةً واحدةً كأنّها تُزيح نَفسَها من نَفسِها وقالت:

ـ اكتفيتُ من الحروب، أُهزَم دائمًا، لا أحد يعرف شيئًا عن خسائري، وحدي التي أعلم كلّ شيء.

ـ لماذا تنسين الله وهو يعلم كلّ شيء؟!

اعترضَت عليّ بحدة:

ـ أنا لا أُسقِط الله من حديثي أبدًا.

فزدتُ على اعتراضها اعتراضًا:

ـ لا أحد يجرؤ أن يُسقِط الله من حديثه، لكننا بجهلنا ننسى أنه معنا، قريبٌ مجيب.

ـ لا تفهميني بصورة خاطئة، لكن كيف أرى الله؟ أرى قربه هذا الذي تقولين؟

أؤمن أن الله هنا، لكنّي لا أراه في نفسي ولا في مرآتي ولا في وجوه الناس من حولي. أؤمن بالله، وإياكِ أن تظنّي بي غير ذلك، لكن أريد أن أراه.. أحتاج أن أراه.

كانت ترتجف كأنّما نزل الشتاء وسكن بين عظمها ولحمها، مددتُ يدي إلى كتفها ومسحتُ عليها بلطفٍ ووشوشتُ لها:

ـ لا بأس، لا تحزني.

رفعَت رأسها مدهوشة إليّ وتفوّهَت بصعوبةٍ:

ـ ألن تغضبي عليّ؟!

باستنكار سألتها:

ـ ولماذا أفعل؟!

فأجابت على استحياء:

ـ لأنّي أسأتُ الأدب في الحديث عن الله، وقلتُ أريد أن أراه.

ـ قد قالها قبلكِ موسى عليه السلام ولم يغضب عليه الله.

لمحتُ في عينها امتنانًا وهي تُضيف:

ـ لن أقولها ثانيةً، أعدكِ، لكني أخشى أن أضعف.

ـ قولكِ هذا وحده كافٍ لأُدرِك أيّ قلبٍ طيّبٍ أنتِ، لكنكِ فقط تحتاجين نظارة جديدة لتري ما اعتدتِ عليه، فلم يعد يلفِت انتباهك منذ زمن. كلّ نِعَم الله عليكِ من حولَك هي صورة لوجوده وقربه ورحمته ولطفه، طعامكِ وشرابكِ وضحكِكِ الذي يبهج يومك، ودموعك التي تنفس لهيب صدرك، ورزقه الذي يأتيكِ في كلمة من صديق أو ضمّة من أُمّ، أو عون من غريب لا يعرفك.

بدت حينها كاسفة البال نادمةً على ما فرَط منها؛ فكأنّما تذهب نفسها منها حسرات، أردفتُ بلطفٍ:

ـ لو تعلمين ما يُرسله الله لكِ من رحمات في أشدّ أيامكِ بلاءً لتعجبتِ، فقد تحسبين أن لا أحد معكِ، لا أحد يشعر بكِ، وأنا أتفق

معكِ هنا.. فلا أحد حقيقةً يشعر بأحد إلا من عاين الألم ذاته.

من أُخذَت نفسهُ من نفسهِ هو وحده يدرك معنى الفقد.

من بات الليل يبحث عن دواء يُسكِت وجعه هو وحده يعرف معنى أن تبيت مجروحًا.

وعلى الرُّغم من أنه لا أحد يعرف الشعور الحقيقي

لكن أن يجد الإنسان من يقول له:

«هوّن عليك أنا معك»

«أشعر بك.. لست وحدك»

«اصرخ معي.. لا تكتم»

«ابكِ عندي.. اسكبه كله»

ففي تلك اللحظة يُدرِك المرء أنّ الله من فوق سبع سماوات سخّر له على وجه الأرض من يحنّ له وعليه في الأيام الجارحات.

حينها نودِي على رقَمي الذي أحمله بين يديّ لأتهيّأ لدوري، فتأهّبتُ واقفةً وقلتُ للفتاة:

ـ احفظي لي كرسيّي حتى أعود.

رفعتُ حاسوبي المحمول الصغير على يدي ووقفتُ مستندةً على عمودٍ قريبٍ من النافذة التي سأقف أمامها، ونويتُ اغتنام انتظاري السريع هذا في مراجعة الملف.

«دُعَاءٌ لا رَيبَ فِيهِ»

منذ أعوام قابلنا بإحدى مسابقات القرآن شيخًا كبيرًا، جلس يحكي لنا عن زوجته قديمًا، التي لم تكن تُنجِب وقد مرّ على زواجهما عشر سنوات، حتى أتى يومُ عرَفَة عليهما في سنة من العشر؛ فسمِعَت زوجته في مجلس عِلم أن صحابيًّا حكى أنه لم يكن يدعو الله بدعوة في يوم عرفة إلا وينالها أو خيرًا منها، وذلك قبل أن يمر عليه العام.

فوقع ذلك القول في نفسها وقعًا شديدًا عظيم الإيمان؛ فجلست يومها كله تصلّي وتدعو.. تصلّي وتدعو..

مضى يوم عرفة وبعده يومان من أيام العيد.. ونزلت هي في اليوم الثالث تشتري ملابس أطفال. تعجّب منها الشيخ إذ كانت تشتري ألوانًا محددة تليق بالإناث، كان يسألها مستنكرًا:

ـ «وما أدراكِ أنكِ حامل يا امرأة بعد كل هذه السنوات، وفي أنثى..!».

فتخبره مستبشرة:

ـ «دعاء يوم عرفة لا يُرد».

مرّ الشهر وما حملت، ومرّ العام وما حملت، ولكنها ما فترت همَّتها يومًا عن الدعاء، ثُمَّ أتى يوم عرفة من جديد؛ فصلّت ودعت.. وصلّت ودعت...

وفي اليوم الثالث نزلت لتشتري ملابس أطفال تليق بالذكور، هذه المرة منعها الشيخ ونهاها ونهرها.. فعاتبته بحزن:

ـ «ما يضرّك أن تُحسِن الظنّ بالله؟!».

فسكت خجلًا، ومرّ الشهر وأجرت التحاليل ولم تكن حاملًا..!

ومرّ العام كله كذلك بلا حمل، لكن لم تغفل يومًا عن الدعاء، وأتى يوم عرفة من جديد.. ووقفت للصلاة، وقبل أن تكبّر أول تكبيرة من قيام ليلة عرفة سقطت مغشيًّا عليها، وعند الفحوصات علما أنها بالشهر الثالث من الحمل، وبعد ستة أشهر أنجبت توءمين، ذكرًا وأنثى.

وكانت لي صاحبة.. تسألني في الهاتف عن يوم عرفة كل عام:

ـ «جهزتِ قائمة الدعاء الخاصة بكِ؟ فأنا والله جهزتُها وقد أعدَتُّ فيها العجب العجاب».

وكنتُ أسألها دائمًا عن هذا العجب وذاك العجاب الذي كتَبته، لكنها لم تكن تعطيني إجابة ترضيني أبدًا.

تلك الرفيقة ـ قبل أن تفارقني فراق الكفن ـ أسرّت إليّ بخبرها، أنها ومنذ اثنتي عشرة عامًا كانت تنال كل عجيب لها تطلبه من الله يوم عرفة، وقبل موعده الذي ترجوه، وقد أقسمت على ذلك ثلاثًا. كان ذلك والحمد لله آخر حديث بيننا من أحاديث الدنيا.

ثُمَّ هاهو قول الإمام الأوزاعي:

«أدركتُ أقوامًا كانوا يخبئون الحاجات ليوم عَرَفَة ليسألوا الله بها».

فكونوا في ذكائهم؛ جهّزوا دعواتكم وأخرجوا خبيئة صدوركم بين يدي الله، واذكروا أحبّتكم بخير الدعاء، واغفروا لأهلكم وإخوانكم، وجدِّدوا عهود الإيمان، ولا تبخلوا على أنفسكم بالذكر والدعاء، واجعلوا آخر ساعة منه خلوة بينكم وبين الله، عسى أن تُرزقوا فيه دعوة لا ترد.

ولا تنسوا.. الدعاء نوعان:

دعاء مسألة ودعاء ثناء؛ فاجعلوا لكم نصيبًا من الاثنين؛ تفوزوا بإذن الله.

«عَسَّلَكُم الله»

في حديثٍ يفوح شهدًا يقول المرء لصاحبه: «عسَّلكُم الله!»، فيضحك صاحبه وقد ظن أنّه يمازحه.

يظنّ الكثير أن معنى الدعاء هنا هو تعسيل الروح، أي: «الدم الخفيف والكلام اللطيف المُحبب للنفس»، لكن حديث الرَسول ﷺ أوضح حقيقة المعنى:

«إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَّلَهُ؛ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا عَسَّلُهُ؟ قَالَ: يَفْتَحُ لَهُ عَمَلاً صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ مَنْ حَوْلَهُ».

لذا..

معنى الدعاء هنا.. «عسّلكُم الله»، أي: رزقكم سبحانه عملًا صالحًا طيبًا تستمرون عليه حتى يقبضكم الله؛ فيكون حسن الخاتمة بإذن الله.

وجاء في كتاب تهذيب اللغة:

معنى قوله: «إذا أراد اللهُ بعبْدٍ خيرًا عَسَّله»؛ أي: طيَّب ثناءه، وقال بعضهم: أي جعل له من العمل الصالح ثناءً طيبًا كالعسل.

وجاء في مقاييس اللغة:

«إذا أراد الله بعبْدٍ خيرًا عسَّله» معناه: طيَّب ذِكْره وحلَّاه في قلوب الناس بالصالح من العمل.

وبرأيي.. هو دعاء مغلّف بكثير من الحب واللطف، فاجعلوه في أحاديثكم مع صحبتكم وأحبتكم.

ثُمَّ..

إذا كنتم في تجمُّعٍ.. أو في حديث مع أفراد عائلتكم، جيرانكم، أصدقائكم، حتى ولو في مجموعة في صف لاستلام المعاش أو شراء خبز... احكوا شيئًا لطيفًا، اصنعوا تواصلًا مع الحاضرين ولو بالعين في أثناء الحديث، ثُمَّ... صلّوا على رسول الله، فإذا ردّوا عليكم السلام، تأكدتم أنهم معكم ولو بسمعهم.

الآن... اذكروا لهم بهدوء وتواضع كيفية وضوء الرسول ﷺ ـ وهو الوضوء الشرعي الذي نفعله والحمد لله ـ، وأكثروا من ذكر الرسول ﷺ فتطيب نفوس الحاضرين وتنجذب قلوبهم، فاجعلوه سيّد حديثكم، ثُمَّ اذكروا كيفية صلاة الرسول، وكم سورة يقرأ في الركعة الأولى والثانية، وكم ركعة لكل صلاة.

ذكِّروهم بالتشهد الأوّل والأخير، أخبروهم أن السلام في نهاية الصلاة نبدؤه باليمين بعده اليسار.

أعيدوا نشر ما استطعتُم من الأساسيات، سيصدمكم مدى غرابة ما تقولون على أسماع من حولكم، فوالله إن الكثير ممن بلغ سن الجامعة وأكبر من ذلك لا يعلمونه، وبعضهم يسمعونه للمرة الأولى.

افعلوها لله، فالقلوب صارت غريبةً داخل الصدور، مشتاقةً لتسمع عن الله.

❊ ❊ ❊

ـ هاااا؟ ماذا قررتِ؟

بفزعٍ التفتَت إليَّ ولم تكن انتبهت لعودتي؛ فاعتدلَت وردَّت عليَّ سؤالًا بسؤال:

ـ قررتُ في ماذا؟

أجبتُ بسرعة تنفي أي حيرة واستغراب:

ـ ستقفزين أم ستأخذين الأقراص المنومة؟

ارتسمَت خيبة الأمل على وجهها ونظرَت إلى الأرضِ هامسةً:

ـ هل الحُبُّ ينقذ الإنسان من الموت؟

استغربتُ سؤالها، لكن أجبتُ:

ـ أخطأتِ خطئين في سؤالكِ، أولهما أنّ الحُبّ ليس كيانًا مستقلًّا بذاته ليستطيع التصرّف.

ـ وما صواب خطئي الأول؟

ـ أن تقولي: هل الأحبّة...؟

باستنكار همهمت:

ـ وماذا يفعل الأحبة؟!

شعرتُ أن لساني وقعَت عليه لطافة ورِقّة؛ فأسهبتُ:

ـ الأحبةُ..

يُنزلون على القلب صناعةً جديدة، كإعادة ضبط المصنع..!

معهم نرى الربيع.. ربيعًا آخر غير الذي يعرفه الناس.

ويتنسّم الزهر.. زهرًا آخر غير الذي يشمّه الناس.

ونجد الخريف ذا السقطات الكبرى لـلأوراق.. هو ذاته صاحب الضمّات الكبرى والأماني الدافئة.

ثُمّ.. نعرف في غيابهم الشتاء، وكأنّه أوّل صقيع يمرّ بنا، فينشرنا نشرًا، وينثرنا نَثرًا، ويخرجنا فَنًّا.

فإن أنتِ باقية مع أحبتكِ؛ عرفتِ معنى الضَمِّ واللمِّ.

وإن أنتِ متروكة دونهم؛ عرفتِ معنى الهَمِّ والغَمِّ.

فلم يعد الربيع عندكِ كالذي كان،

ولا رائحة الزهر في أنفكِ كالتي كانت،

ولا الخريف هو الخريف.

ففي غياب الأحبة يصير الإنسان كلّه شتاء..!

بوجهٍ منزوع عنه الجهل رفعت رأسها إليّ مدهوشة الشفتين، تجلّى حينها أنها تحاول إدراك ما لا يُدرَك من المعاني التي لم أذكرها، قالت بعد دقيقة:

ـ وخطئي الثاني؟

ـ لا شيء ينقذ الإنسان من الموت، فالموت هو الحقيقة الوحيدة

التي لا فرار ولا فكاك منها.

بِحَيرةٍ عبّرَت:

ـ ما هو السؤال الصحيح إذًا؟

ـ هل يستطيع الأحبّة إنقاذنا من أنفسنا؟

قلتُ جملتي وسكتُّ؛ فتعجّلَت حرفيَ المكتوم:

ـ هاااا؟ ما الإجابة؟

أجبتُها:

ـ لا يستطيع أيّ إنسان، حبيبًا كان أو غير حبيب أن ينقذ أحدًا لا يُريد أن يُنقَذ.

ـ لماذا قلتِ «حبيب أو غير حبيب»؟

ـ لأن لا شرط في من ينقذكِ أن يكون حبيبكِ، فقد ينقذكِ غريبٌ لا يعرفكِ عند قفزكِ مثلًا، السرّ كله معكِ أنتِ، هل تودّين الإنقاذ؟

ـ لا أفهمكِ.

ـ لأنكِ لا تفهمين نفسكِ، تعتقدين أن الموت إجابة لمشكلة تمرّين بها.

ـ ومن قال أنّي أمرّ بمشكلة؟!

ـ حسنًا، ليسَت مشكلة، بابٌ مغلَق أمامكِ لا ترين ما وراءه، وتعتقدين أن انتحاركِ سيفتح لكِ هذا الباب.

سكتت الفتاة مُنصتةً دون اعتراض؛ فأكملتُ:

ـ لو أنقذكِ أحد من السقوط؛ ستجرِّبين الأقراص، ولو أنقذكِ أحد منها؛ ستجربين الغرق، ولو أُنقذتِ منه؛ ستُجربين قطع شرايين معصمكِ.. ولو...

كل مرّة يُنقذكِ أحدهم ستبحثين عن طريقة أُخرى، وهذا لأنّكِ لا ترين إلا اللافتة الكبيرة المضيئة التي تضعينها أمام عينكِ طوال الوقت.

بفضول سألت:

ـ وما هي؟

ـ «الانتحار هو الحل».

غلبنا الصمت معًا، انتظرتُ منها تعقيبًا لكنّها بقيَت صامتة، تحدثتُ:

ـ عليكِ أن تعلمي أن فكرة الانتحار نفسها تغلب كل مصائبكِ دفعةً واحدة، لأنكِ ترينها الباب الخلفي والمهرَب من أي شيء، وهذا في حد ذاته يعطّلكِ عن وجود حلّ آخر، يعطّلكِ عن الحياة.

ـ ما هي الحياة في نظركِ؟

ـ مجموعة من الأشخاص، مجموعة من الأماكن، ذكريات، مواقف، رفقاء، علم، معرفة، فكاهة، حزن...

حياة كلّ منّا تُشبه الحقيبة، لا أحد يعرف ما تحويها إلا صاحبها، وحده يعرف جيدًا ما وضع فيها.

بدا أن وجهتينا في الفكر اتحدتا، لكن اكتشفتُ التعارض لما سألتني:

ـ وماذا لو الحقيبة ممزقة؛ فيسقط منها شيء كلّ يوم؟! كل ساعة، الذكريات والأماكن والأشخاص، كل شيء يقلُّ تدريجيًّا ويختفي من الحياة.. أقصد من الحقيبة، فنستيقظ ونجد أن الأسباب التي كانت تجعلنا نتحرّك من السرير ونخلع عنّا الكسل؛ ونقوم.. اختفت!

كان في حديثها رعشة ألم، وفي عينها ماء حنين، فاستمطرتُ منها إنصاتًا؛ فأنصتت إليّ راضيةً:

ـ حتى لو فقدنا ما يميّز حياتنا؛ ففي رأسنا تسكن آثارهم، ما دمنا قادرين على التخيّل؛ فإن الأيام الأصعب، لم تأتِ بعد، تعلمين ما يُفزِع حقًّا؟

تأمَّلتْني صامتةً؛ فأكملتُ:

ـ يُفزِعني ذاك اليوم الذي أُحرَم فيه من أحبّتي، أن أبحث عنهم؛ فلا أصل إليهم؛ فأحاول حينها أن أتخيل وجوههم، ضحكهم، لعبهم، حديثهم، فيفرّ مني مشهدهم، وتغيب عني صورهم. وإني لأدعو الله أن تذهب روحي إليه قبل أن تذهب روحهم وخيالاتهم عنّي.

وكأنّما أُذن في نفسها بجلاء الشبهة عن فكرها؛ فجاء سؤالها التالي:

ـ ماذا عن الأماكن التي بقيَت من بعدهم خاليةً منهم، فارغةً من صورهم، ميتةً دونهم؟!

ـ هذه الأماكن تبقى عزيزةً غالية، لا يصحُّ هجرها أبدًا، فشيءٌ من اللطف يسكن الجمادات التي تشاركنا أحبتنا، نقف على رؤوس الأماكن، نبتسم لذكراهم فيها...

هاهُنا جلسوا، وهاهُنا أكلوا، ضحكوا، سكتوا، حزنوا، فرحوا، ناموا، وهاهُنا قاموا. نتخيّل مرورهم كله، وحديثهم كله، نظرهم الذي ينزل على الأركان ويرتدّ إليهم ممتلئًا بأشيائهم ومُتعهم والنِّعم التي نزلت بهم.

تهدّج صوتها وتخلخل كتفها وهي تسمعني، استمررتُ:

ـ لا نجتمع بأحبتنا حقيقةً لكن نرى آثارهم، نُلقي عليها السلام، نشتاق لهم، نتلهف عليهم، نَحنّ إليهم، ويبقى كذلك شيءٌ من الوجع يسكن الجمادات التي شاركتنا أحبتنا، نقف على رؤوس الأماكن، نبتسم وعيوننا تحاول الصمود..

فلله درّهم، ولله ما نلقى وما نجدُ بعد رحيلهم وفراغ الأماكن منهم!.

بيأسٍ واضحٍ كأنّما تُربكها ذكرى، تكلّمتْ:

ـ ماذا عن الاشخاص من حولنا؟ أولئك الذين ينغّصون حياتنا، ويُفسدون سكّرها فيجعلونه ملحًا خالصًا على جروحنا!

أحزنني تخيّل ما أوصل الفتاة لهذه الكلمات التي تحتاج لمن يخيّط أثرها في نفسها، أجبتُها برقّةٍ:

ـ كل إنسان فينا يملك أن يهدّ كيان صاحبه هدًّا منظمًا مدروسًا؛ فلا تقوم له قائمة بعدها، يعرف مداخله ومخارجه، ما يوجعه وما يطببه، حتى ذلك الهيّن اللَّـيِّن الذي لا يهتم بدفع الضرر عن نفسه ويغض الطرف، تجدينه قد أوتيَ عقلًا يستطيع أن يميّز به بين القتل والطعن والـضرب.. وبين مجرد الصمت، مأخوذًا بقلبه الذي لا يحتمل فكرة السن بالسن والعين بالعين.

كل امرئٍ بلا استثناء بيده سلاح؛ فأحدهم يخرجه كلّما بدا له مَخرج، والآخر يتركه في مكانه لا يؤذي به ولا يؤذى.

لكن..

من كان إنسانًا حقًّا بإنسانيّة حاضرة؛ لم ينظر أبدًا حيث سلاحه مهما جاءته من ضربات، فقلّة من يفقهون أن الجروح في نفوس أحبتهم تقع في صدورهم قبلهم، وأن جروح الحياة لا ترافق طرفًا واحدًا طوال الوقت.

عند هذا القدر من الحديث قامت من جانبي متكلّمةً:

ـ أكاد أن أموت عطشًا، احفظي لي كُرسيَّي حتى أعود.

اختفى أثرها من حولي؛ فوضعتُ حقيبتي مكانها حتى تعود ورجعتُ إلى ملفّي الذي ملّ من كثرة فتحه وغلقه.

«ما يعنيه أن تكون إنسانًا؟!»

لا أحب الأقلام الداعية إلى العزلة والغياب وترك شؤون الأيام وأحوالها، وتجاهل أفراح الأُمّة وأوجاعها، وما شابه ذلك أو جاوره لفظًا ومعنى؛ لأننا نجد حينها بين أيدينا جيلًا أنانيًّا، مُحبَطًا ومُحبِطًا، لا يُعلّق زينة الفرح لصديق، ولا يقول كلمة السلام لمُتعَب، ولا يستلّ سيف الهِمّة، أو حتى يدخل حربًا بالقلم في رسالة لأجل أحد، يقضي العمر يتفنَّن في إقامة جدران عزلته، ويغفل عن أن معنى الإنسانية والحضور هو معنى كريم ونبيل وصادق، عزيزٌ من ظلّ إنسان هذه الأيام.

هناك كلمات يلقيها الإنسان على سمعِ أخيه تُعرّي فيه شموخه وكبرياءه، كأن يقول له: «أحتاجك»، هذه الكلمة ثقيلة جدًّا على لسان قائلها، خفيفة على أُذن سامعها، صادقة، مُخجِلة، موجعة، متواضعة.

كأنّها الفرق بين العزة والذل، والقوة والضعف، والفقر والغنى.

إن جاءتكم؛ فأحسنوا استقبالها وتولّي أمرها، ولا تردّوها مخذولة، ولا تذروها كالمعلّقة، وكونوا ملاذًا لكلّ قاصد.

فهناك أفعال وكلمات ينتظرها المرء من أخيه لتمسح على صدره وتثبّته، فتجد أحدهم وهو يحاورك.. يقسم بالله مرة، وبالمصحف

مرة، وبالكعبة مرة، وبالنبيّ مرة، وبأولاده مرة، وبأمواله مرة... وفي نهاية حديثه لا يزال يشعر أنك لا ولن تصدقه!

«حينما تتحدث الشفاه لا تتعطّل الأذن»

قاعدة يجب أن ننتبه لها، فالمتكلّم معنا ما زالت أذنه تعمل، ينتظر من مستمعه تأكيدًا واطمئنانًا وأمانًا، ينتظر مجموعة أشياء قد يعوّض عنها كلها كلمة واحدة إذا سمعها؛ سقطت عنه جبال الشك والرهبة والخوف، ينتظر أن يسمع: «أُصدّقك».

حينها لن تراه يقسم كثيرًا في حديثه معك وقد علم أنه مُصدَّق عندك. وهذا تمام الاطمئنان بالنسبة له وغاية أمله في نفس صاحبه، ولا يزال الإنسان يبخل ويغفل!

ثُمَّ..

يمرّ الإنسان منّا على كتاب ربّه، فيجد الله الرحيم قد أمر بجبر خاطر الفقراء واليتامى إذا حضروا قسمة ميراث؛ فيسدّ به حاجتهم ويجبر به خاطرهم: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾.

كذلك..

نرى عتاب الله من فوق سبع سماوات لنبيه محمد ﷺ لأنه أعرض عن «ابن أم مكتوم» فاقدِ البصر عندما جاءه سائلًا مستفسرًا قائلًا:

ـ «علِّمني مما علمك الله».

وكان النبي الكريم منشغلًا بدعوة بعض صناديد قريش، فأعرض عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾.

يقول الإمام القرطبي في ذلك:

ـ «فعاتبه الله على ذلك؛ لكي لا تنكسر قلوب أهل الإيمان».

ونسمع..

عن رسولنا ﷺ كذلك أنّه ذات يوم دخل المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له «أبا أمامة»، فقال:

ـ «يا أبا أمامة، ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟».

قال أبو أمامة:

ـ «هموم لزمتني، وديون يا رسول الله».

فقال له رسول الله ﷺ:

ـ «أفلا أعلِّمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله ﷻ همَّك، وقضى عنك دينك؟».

قال أبو أمامة:

ـ «بلى يا رسول الله!».

قال:

ـ «قل إذا أصبحت، وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

يقول أبو أمامة:

ـ «ففعلت ذلك، فأذهب الله همي وقضى عني ديني».

ديننا..

دين عظيم، يُشرِق في نفوسنا الرحمة، ويؤصّل في أفئدتنا البرّ والتقوى، فنرى من يحرص منهم على قلبه يحرص كذلك على اللطف بعباد الله من حوله، والتودُّد لهم، يشتري من بائعٍ متجوّل في حرارة الشمس، ويقبل اعتذار من أتاه مذلولًا مخذولًا، ويمسح على رأس اليتيم ويُهاديه، ويرى طفلًا صغيرًا مكسورة لعبته؛ فيصلحها له.. فيشكر الله لهم جميعًا، ومن شكر الله له؛ غفر له.

ويقول العرب:

«إنّ حُبّ الخير للغيرِ خير، وإن عجَزَت عنه المقدرة».

«مِن حقِّنا أن نُذنِب!»

س: لدي مشكلة..

حينما أقف أمام ربي، وأرفع يدي بالدعاء، أقول قولًا غير مفهوم، في النهاية أخجل من نفسي وأنزل يدي وأتوقف، فماذا أفعل؟

ج: لا تجهدي نفسك، فأنتِ غير مطالبة بتجويد الدعاء ونظمه وصياغته بلغة عربية سليمة..

اجتهدي بأفضل كلماتك وأحسني عباراتك وإن كانت حروفك غير مضبوطة وغير مفهمومة، فخالقك يعلم ما بصدرك قبل تلفظك بها، فهو ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾.

***

س: لكن صاحبتي قالت لي: إن الدعاء رزق، وما دمتُ أخلِط المعاني في دعائي ولا أُحسِن الدعاء؛ فالله لن يرزقني الإجابة، فهل هذا صحيح؟

ج: تلعثمك وتهتهتك في الدعاء ولغبطتك لا تعني أبدًا إنك محرومة من الدعاء، بل ربما يغلب عليك الخجل من ذنبك، أو

كثرت عليك الهموم فتثاقل الحرف في فمك، وربما دخلتِ في الدعاء وقلبك مشغول وفكرك مشغول، فكيف لك أن تجمعي الكلمة على الكلمة حينها وتطلبي الدعاء؟!

بدايةً عليك فقط أن تصفّي ذهنك، وتبتعدي عما يشغلك، وتتركي الدنيا خلف ظهرك. ثم استشعري وقوفك بين يدي الله، ولا تبحثي عن دعاء منظّم ومنغّم.. فقط ادعي بما في قلبك وإن كان بسيطًا في نظرك لا يستحق.. ادعي، وإن كان مستحيلًا في عقلك.. ادعي، فإنك حينها إن أُلهمتِ الدعاء فأبشري بالإجابة، فقد قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لا أحمل همَّ الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمتُ الدعاء فإن الإجابة معه».

❊ ❊ ❊

س: ذنوبي كثيرة ومُخجلة، وأنا مُحرجةٌ من الوقوف أمام الله وهو يعلم كل هذه الأخطاء عنّي!

ج: ربنا ﷻ لما قال ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ لم يختص أشخاصًا بعينهم بهذا الأمر، وإنما كان خطابه سبحانه عامًّا لجميع خلقه المؤمنين به الموحدين له، فبابه لا يُغلَق أبدًا وبمجرد الدعاء يعد ربنا بالإجابة.

والإجابة تأتي على ثلاثة وجوه:

«إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِن السُّوءِ مثلها».

أما عن الذنوب، فلو أرادنا سبحانه ألا نخطئ لخلقنا كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، لكنّه خَلقنا بالكيفية التي قدّرها علينا، وهو العليم بنا.. بضعفنا وجهادنا واجتهادنا.

❊❊❊

س: معنى هذا أنّ ربنا خلقنا بهذه الكيفية، أنّه خلقنا لنُذنِب؟

ج: بل المعنى أنه ﷻ سبق بقضائه وعلمه أن الجنّ والإنس يذنبون؛ فيتوب الله على من تاب ويغفر الله لمن شاء ويعفو عمن شاء.

قال الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم غيركم، يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم».

❊❊❊

س: أليس هذا عذرًا كافيًا لنا لنُخطئ؟

ج: ليس معناها الترخيص أبدًا في الذنوب، فالله نهى عنها وحرّمها، لكن سبق في علمه أنها توجد وتقع من الجن والإنس؛ وهنا دلالة على أن هذا لا بدَّ منه؛ فلا يقنط المؤمن ولا ييئس، فالله يتوب على من تاب ويعفو عمن رجع إليه، ويغفر لمن يشاء إذا تاب إليه، فضلاً منه تعالى وإحسانًا، فتتجلّى هنا آثار أسمائه الحسنى: التواب، الرحيم، العفو، الغفور. والله يعلم ما في الصدور.

«يا هذا، خالفتَ أمر نبيّنا إن أنتَ أحزنتَ النّساء»

هذه الجملة أقرؤها دومًا:

«إذا أنتم دخلتم القلوب؛ فأحسنوا سكناها»

لكنّي ما آمنتُ بها يومًا، فالقلوب لا تُسكَن مُجرّد السَكن، بل يصنع أحبتنا لنا فيها أوطانًا، ملاذًا، أمانًا، حياةً ومقامًا.

ثُمَّ إذا انتزع المرء نفسه منها؛ كان كانتزاع الروح من الروح، والنظر من العين، والهمس من الشفتين، واللمس من اليدين؛ وبهذا يكون خراب الأوطان!

وخير أوطان المرء وأعزّها وأطهرها عند الله، قلوب النساء، فنرى في كتاب الله لطفًا ورحمةً وتكريمًا:

ففي سورة القصص:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

وفي سورة الأحزاب:

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

وفي سورة مريم:

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾

وحزن النساء يفقدهن جمالهن ويزيدهن ضعفًا. وثبت علميًّا أن الحزن يؤثر على الغدد المفرزة للهرمونات الأنثوية، فكم حزينة شحب لونها! وكم حزينة ابيضَّ شعرها وتساقط من الحزن!

حزن النّساء مُعقّد.. تتجمّع القصائد في أرواحهن، ثُمَّ تُسكَب إذا أوقدت نار الإلقاء وتُليَت الكلمات؛ فتسقط من العين مهراقة، ومن الشفتين رقراقة، ووسط الضلوع خفّاقة.

حزن النساء صموت.. كشَعرٍ غجريٍّ لُمِلَمَ جديلة قُدسيّة.. والمعاني كلها بين صبرٍ وقنوت!

***

ـ عُدتُ.

هتفت بها وهي تُسلمني زجاجة مياه معدنية وترفع حقيبتي عن الكرسي وتجلس عليه، بامتنانٍ:

ـ أحسنتِ، أحسن الله إليكِ.

ـ «أحسنتُ» بسبب زجاجة مياه!

ماذا لو أحضرتُ لكِ كوب قهوة إذًا؟ ستريننني قد أحضرتُ لكِ الدنيا بأسرها!

ـ هل تستهينين بزجاجة المياه وكوب القهوة؟!

إحسانكِ يظل إحسانًا مهما عظم فعلكِ أو صغر.

ـ بكِ مبالغة.

ـ بل بكِ تهاون.

رفعَت رأسها لأعلى، زفرَت زفرتين وقالت بحدّة:

ـ الناس لا يُقيّمون هذه التفاهات التي ترينها تستحق كلمة «أحسنت»، فلا تفرضي عليّ طريقتكِ لأنها خاطئة.

التفتُّ بجسدي كله تجاهها:

ـ ومن قال أنّ الناس تقيم وزنًا للأفعال؟!

الناس لا تزن إلا ما يناسبها، المهم أنتِ وما ترينه من نفسكِ، هل كوب ماء لغريبة لا تعرفينها وجه من وجوه الإحسان؟ أم مجرّد فعل جامد لا تسبقه عاطفة ولا يتبعه امتنان؟

تلَعثَمَت في ردّها؛ فقطعتُ عليها القول:

ـ لماذا تحقّرين ما لم يحقّره الله؟

فزعت لجملتي؛ فأتبعتُها بأخرى:

ـ «على كلّ كبدٍ رطبةٍ أجر» حديث رسولنا ﷺ، فلو سقيتِ حيوانًا كان لكِ أجر من الله، فكيف بكِ لو سقيتِ إنسانًا؟!

ـ أنتِ لا تفهمين مقصدي، أعني أنّه فعلٌ بسيط لا يستحق.

أمسكتُ يدها:

ـ بل أنتِ أَرقّ من أن ترينه يستحق.

احمرّ وجهها خجلًا؛ أكملتُ:

ـ لا حاجة لكِ بآراء الناس لتري نفسكِ، تعلمين ما أنا مقتنعة به حقًّا؟

ـ ماذا؟

ـ أن استيقاظ المرأة منّا وقيامها من فراشها في حد ذاته وجه من وجوه الإحسان.

ضَحِكَت؛ فأتبعتُ جملتي:

ـ أن نقوم اضطرارًا هو إحسان، وأن نقوم تفضّلًا إحسان، وأن نبتسم في وجه صغيرٍ على الرُّغم من حزننا وهمومنا إحسان، ودخولنا المطبخ إحسان، واختراع صناعة جديدة في كل طبخة إحسان، وصبرنا على التجاهل، وتغافلنا أمام الأخطاء، وزيارتنا لأناس لا نحتملهم، وقدرتنا على التواصل، والسكوت على تقييمات الآخرين، والرضا بنتائج تُفرَض علينا من قرارات لم نتخذها، والكلمة الطيبة، والنظرة اللطيفة، واللمسة الرقيقة.. كل ما نصنعه

هو من باب الإحسان، إحسان في نفوسنا ونفوس أحبتنا وأهلنا.

مدهوشة بالحديث؛ سألت:

ـ هكذا بكلّ بساطة نقلتِ الإنسان منّا من شيطان إلى ملاك؟!

ـ لا، ليس بكل بساطة، فنيّة الإنسان هي التي تنقله لا أنا، فهل يستوي من يعطي الماء بيمينه ويقول بلسانه.. «هيا، اطفَح»، ومن يقول: «هيا اشرب، بسم الله»؟!

بفخرٍ هتفَت كطفلٍ صغيرٍ:

ـ أنا، أنا والله أفعل هذا.

وبفخرٍ أشدّ رددتُ عليها:

ـ كتبكِ الله من المُحسنين.

بحزنٍ قالت:

ـ عينكِ هذه التي تنظرين لي بها!

ـ ما لها؟

ـ أحببتُها أكثر من عيني.

ـ تعلمين..؟

ـ ماذا؟

أخبرتُها:

ـ أُحببتُ عيني أكثر لحبّكِ لها.

ازداد وجهها خجلًا، مرّت دقائق حتى قطَعتها:

ـ ماذا أفعل في الأيام التي يغلبني فيها الحنين لأشخاصٍ ذهبوا عنّي، فارقوني لكنّهم ما زالوا أحياء؟

سكتُّ قليلًا، لَم تعلَم أنّها ضربَت في صدري جرحًا لم يلتئم أبدًا منذ سنوات، كتمتُ ما استطعتُ، تخيّلتُ أنّي أُجيبُها...

«يومٌ من أيامِ الله، لا نملك فيه إلا أن نغمض العين؛ فننظر حيث فرّ قلبنا منّا..!

نبتسم لرؤاهم في جُنح الخيال، نبدأ حديثًا من يَاسَمِين، ننثُر عطرهُ، نجمَع أُنسهُ، نلمِس لطفهُ، نهمِس اسمهُ، يَمرّ بنا عابرٌ؛ فننتبه..!

نتخيّل لثوانٍ أن الابتسامة العطشى في صدورنا قد انتقلت إلى وجوهنا؛ فنُسأَل حينها عنها..

لكن لم يفلت منّا غير الشوق المالح الذي بلل قلوبنا دون انتباه؛ نُسأَل بفضولٍ: «لِمَ؟!».

فنَسكت سكوتًا مُرهِقًا، وما زال الماء من العينين يجري، نكتم ما استطعنا، لكنّ الدمع نمّامٌ فصيح!»

ـ لماذا سكتِّ؟!

انتبهت على سؤالها أنّي كنتُ صامتةً ساكنةً مُغمضة العينين، فأخذتُ نفسًا طويلًا لملمتُ فيه من ثباتي ما لَملمتُ وهمستُ لها:

ـ سأخبركِ كيف يمرّ الحنين عليكِ بهدوء دون أن يجرحكِ.

بسرعةٍ تمنّت:

ـ يا ليت.

ـ تقفين على عتبة الفجر، الكون صامت من حولكِ، الليل يرقبك، النجوم تسمع، الرياح هادئة على غير العادة؛ حينها تقررين أنّ هذا أعظم إحسان تقدمينه لنفسكِ ولهم؛ فترفعين يدكِ إلى السّماء، إلى ربّها، وتهمسين همسًا أخيرًا باسمهم:

«يا روحهم.. كوني بخير».

حينها استسلَمَت الفتاة لعبرات كانت تغلبها بالمنع؛ فسقطت جميعًا، استرسلَت في البكاء وكأنّها تبكي بدمع الغمام؛ لا ينتهي، لا ينفد! احترمتُ حزنها الجليّ، صمتُّ وأنا أطيل النظر فيها، تبدّل حالها عن أول اليوم كثيرًا، رتّبَت ملابسها، وعدّلت حجابها، أقامت ظهرها، واستقامت في جلستها؛ فبدا لي عمرها كالسادسة والعشرين أو الثامنة والعشرين، وجهها يُشرِق قليلًا بالرجاء، في نفسها، في الله، لا أعتقد أنها هيّأت نفسها لمّا أرادت القدوم اليوم أن ساعاتها هنا ستحمل لها ما حملت.

تبدو الحياةُ عظيمة أحيانًا، لمّا تُفاجئنا بما يُدهشنا، أو يحمل إلينا بعض رياح الإيمان بأن:

«الأمل موجود؛ والآلام لا ريب ماضية».

نتناسى كل المآسي عند أول عناق من بهجة في لقيا إنسان أو

كلماته، أول ضمّة، شمّة، لمّة، تحمل إلينا شيئًا من وجودنا المُختبئ في غمرةِ الحياة ورتابتها وشدتها، تعود إلى نفوسنا.. لهفتها، ليست كلها، ولا حتى أغلبها، بل يعود ما يكفي، فقط ما يكفي لتهمس الروح بداخلنا:

«أنا بخير.. سأكون».

كرسالة الشمس التي ترسلها كل صباح، وهي ذاتها رسالة القمر حينما يهمس إلينا ونحن نتثاءب مساءً:

«على خيرٍ أتيتُ وعلى خيرٍ سأذهب»!

قررتُ إعطاءها المزيد من الوقت؛ ثُمَّ فتحتُ الملف للمرة الأخيرة.

« على الله السُّقيا »

قابلتُ يومًا صديقة لي وسألتُها عن أبنائها وتربيتهم؛ فحكَت لي عن ابنها ذي العشر سنوات أنه كان يومًا يُناقشها بأمرٍ ما وعلا صوته عليها، وكان ابنها هذا عصبيّ الشخصية شديد الغضب إذا ما أحسّ بظلم، فقالت له بتلقائية قاطعةً الحديث:

«لن أسمعكَ أبدًا أو أحترم ما تقوله ما دام صوتك أعلى من صوتي».

حينها اعتدل الولد في وقفته وسكت دقيقة، ثُمَّ أعاد الكلام مرة ثانية بأسلوب أكثر احترامًا.

وتقول كذلك عن ابنتها المراهقة أنها إذا تجاوزت الأدب في الصوت أو التعليق يكون ردّها عليها:

«انظري كيف أتعامل مع والدتي، وتعاملي معي بالطريقة نفسها، اليوم الذي تجدينني فيه تجاوزت حدودي معها؛ مسموح لكِ حينها بالتجاوز معي، ووالله لن أُعاتبك».

من بداية تربية أولادي وأنا أحب الحوار معهم والحمد لله، كل حكم شرعي وكل أدب اجتماعي وكل سلوك يجب أن أشرح سببه وكيفيته، وماذا سيحدث لو لم نتخلّق به.

لذلك أحب القراءة والتعلّم والاستزادة، لأجلهم، لأجل أمانتهم.. والله المستعان. ومع هذا لا أسلم أبدًا يوميًّا من أن أكتشف أن كثيرًا مما أعلِّمهم يتجاهلونه بكل بساطة، لكن لا يأس بإذن الله، فالله يرى، ووحده يجازينا بالسعي لا بالنتيجة فقط.

وبعد بحثٍ طويل كنت أقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾، وجدتُ أساسيات التربية وُضِعَت هنا، الاصطبار عليها يشمل كل شأن من شؤون حياتهم، في كتب الصلاة وتعليمها.

فدائمًا نقرأ أن أول ما يعلّم ابنك الانضباط في الصلاة هو أن يراك تقوم تتوضأ وتصلي مباشرة بعد أن يؤذن الإمام، فيستشعر منك معنى إقامة الصلاة عند دخول وقتها.

مبدأ القدوة في الصلاة هو المبدأ نفسه الذي نحتاجه في التربية، فلنجعل من أنفسنا قدوة.

فكيف..

آمرهم بالصلاة وأنا أتركها لآخر الوقت!

آمرهم بحفظ القرآن وأنا لا أبذل جهدًا في تحفيظهم ومتابعتهم!

آمرهم بالأدب معي وأنا عديم الأدب مع أقرب الناس مني!

آمرهم باحترام الناس وأنا أغتاب هؤلاء الناس وأعيب فيهم مع فلان وفلان!

الأمثلة كثيرة والإنسان منّا ينسى أنّ هنا عيونًا ترقبه طوال وقته وتقلّده دون أن تشعر.

تربية أولادنا مع كل ما نبذل فيها من جهد ليس بالأمر السهل، لأن البيئة نفسها والمجتمع كله ممتلئ بسلوكيات تهدم في دقيقة ما نبنيه في عام، لكن الثمر الطيب مهما انحرف لا بد أن يعود لأصلهِ ونشأتهِ الأولى، فلنجتهد ولنبذل، وللمولى حفظ النبت وسقايته بإذن الله.

دار البشير للثقافة والعلوم

«كيف تنزل الكلمات على القلوب؟»

جلستُ يومًا مع صانعِ أثاث فارع الطول، أنيق الملبس، يقطع الخشب وينظفه ويمعجنه؛ فيُخرج منه حبًّا خالصًا في هيئة أبواب، تَفتح على الدُّنيا، حدّثني حديث حنين:

ـ حتى أقوى القلوب.. تَحِنُّ إلى عُكّازٍ؛ يكون لها فيه مآرب أخرى..!

ومررتُ على مُعلّمةٍ للحروف تُجلِس الأطفال ببيتها، تسكُب فيهم القصة وتشرح لهم العِبرة، تمسَح على رؤوسهم وتُهدئ أوجاعهم؛ سلمتُ عليها؛ فحدثتني حديث عِلمٍ:

ـ مهما تحدّث العلماء عن مخارج الحروف وحصرها بين الحلق والفم، فما أزال أرى حروفًا وَجَب لها مخرج ثالث..!

كلفظِ: «أُحِبُّك» حرف إيضاح منشؤه القلب.

وقابلتُ رجلًا عربيًا، يعلم أنّ اللغة حياة الشفتين، ومعانيها تُظهِر رِقّة النَّفس وطهرها، وأنّ صدق الحروف ما كان أكثره حضورًا؛ فحدّثني حديث شوقٍ:

ـ حديثها، سطوة الخيال على الحقيقة، والعذوبة على العذاب، والرضا على التمرّد، تشبه الدقّة الأخيرة من القلب؛ يتبعها.. حُبٌّ وانتصار وامتلاء.

واستعملني شاعرٌ يومًا لأُسجِّل خلفه قصيدة شعر حديثة، فأحضر القلم والمحبرة، وجهّز الورقة والمنضدة، وبينما أنا مستغرقٌ في التجهيز؛ حدّثني حديث حُبٍّ عن القصائد:

ـ ليسوا نصًّا أعجميًا؛ فيموتون بالحذف والتعديل، أو يسقطون بالترك والتجاهل، بل هم المتن القُرشيّ الذي وقر بالقلب وآمنت به الجوارح وعُلّق على أستار الروح.

ثُمَّ وقفتُ مع قارئ للقرآن ذات فجرٍ؛ فحدّثني حديث لُطفٍ:

ـ أُحبُّ سماع الأسماء من فم أهل القرآن، أجد في ألسنتهم رِقّة، وفي ألفاظهم أناقة؛ فأشعر بالاسم يصل لقلبي شامخًا وقورًا عطرًا، لا مُستأسِدًا ولا مُتمايعًا...

فحيّا الله كل لطيفةٍ ولطيفٍ تأدّب مع الحروف؛ فأنزلها منزلها من شفتيه، وجمع قوتها ورقتها، سطوتها وعزتها في نداءٍ واحدٍ صحيح ولا زيادة.

فعلمتُ أنّ لأهلِ القرآن قلوبًا غير قلوبنا، ومعانٍ غير معانينا، وأنّ الحرف ينزل علينا، لكنّه ينزل فيهم، وأنّ الكلمات تُلقى إلينا لكنّها تسير معهم، والوِجهة الجَنَّة بإذن الله.

ضغطة خفيفة على كتفِ الفتاة؛ جعلَتها تلتفت إليَّ مُتحيّرة؛ قلتُ:

ـ آن أوان قرارك.

ـ لكنه لم يكن قرارًا، كان طريقًا.

استفهمتُ؛ فأكملَت:

ـ الطُّرق هنا صارت غريبة عليّ، ثقيلة على نفسي، وأنا... وأنا وحيدة، والمعارك من حولي تحتاج سلاحًا، ولا أحد يقرضني أسلحته، ولا جائزة في النهاية، الحرب دائرة فقط من أجل الحرب، كلّ يوم، كلّ ساعة.

سكَتت؛ فأضفتُ:

ـ الضغوط كثيرة، والحياة تُشبه الدوامة تُعاد كلّ يوم، والسّماء لم تعد تُمطِر، حتى الثمار.. تموت قبل قطفها.

بعين مُرتبِكَة نظرَت إليّ؛ فملتُ عليها:

ـ نحن وجهان لعملة واحدة، فالأيام الجميلة لا تدوم عندي ولا عندك، والأحزان لا تستمر عندي ولا عندك، والمال لا نجده تحت الوسادة عندي ولا عندك، وأعتقد أني لو سألتُ كلّ الحاضرين هنا عن حياتهم.. لوجدتُها تُشبهنا إلى حدٍّ كبير.

تلفّتت الفتاة حولها كأنّها تتأكّد من نظريتي؛ فضحكتُ وأنا أسألها:

ـ ماذا ترين عندما تنظرين في المرآة؟

استوقفها سؤالي عن التلفّت وأجابت:

ـ لا أحد، حينما أنظر بالمرآة لا أرى أحدًا، فقط فراغ.

ـ وماذا لو أعطيتكِ عيني؟

ضاقت عيناها وهي تستجمع الكلمات ثُمَّ أطلقتها أخيرًا:

ـ سأراني لكن بعينكِ.

ـ وهل تكفيكِ عيني لتري نفسك؟

ـ لا أدري.

ـ إذًا عندما تقفين أمام المرآة أغلقي عينك.

ـ وكيف أرى؟!!

ـ انظري بذاكرتكِ كيف رأيتِ نفسكِ في عيني.

عادت بظهرها للخلف مُستنكرةً؛ فاقتربتُ أكثر طالبةً:

ـ اغمضي عينك.. هيا افعلي.

فلمّا أغلقتها؛ قلتُ:

ـ أتعلمين أن النمش على وجهكِ يشبه النجوم؟

باستغرابٍ مدت يدها إلى وجهها كأنّها تكتشف لأوّل مرة شكل النَّمَش، لكنّي أزحتُ يدها وأكملتُ:

ـ يبتسم وجهكِ حتى وأنتِ عابسة، أتعلمين هذا؟!

فابتسمَت على استحياء سائلةً:

ـ حقًّا؟!

ـ وتضمّين يدكِ إلى صدركِ كأنّما تخشين أن تبطشي بها دون قصد.

زادت ابتسامتها وهي توضّح:

ـ أحيانًا أخاف أن أصدم أحدًا بيدي وأنا أسير؛ فدائمًا أضمّها إليَّ.

ـ وهل انتبهتِ قبلًا أنكِ لا تظهرين شيئًا من شعركِ خارج الحجاب مع أنّه يبدو ناعمًا برأيي؟

ـ ارتسمَ على وجهها الفخر هاتفةً:

ـ كان أبي رحمه الله يُحبّ حجابي هذا.

ـ إذًا ترين حجابكِ بعيني وعين أبيكِ، من أيضًا؟

ـ وعين خالتي، فهي تُحبّ ألوانه.

ـ ومن يُحبّ صوتكِ؟

ـ أُمّي.

ـ ومن يُحبّ حديثكِ؟

ـ ابنة عمّي.

ـ ومن يبحث عنكِ عند التنزّه؟

ـ ابنة جيراننا.

ـ ومن يحب طبخكِ؟

ـ لا أحد.

انفجرتُ ضاحكةً دون قصد وهي كذلك؛ فانتبه الناس إلينا وعلينا، مرّت دقيقة حتى هدأنا، نظَرَت إليّ بامتنان يُشبه امتنان الأُمهات، سألتني:

ـ ما اسمكِ؟

ـ ما رأيكِ ألا تسألي عنه.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ الأسماء تشرحنا بصورة خاطئة، وأنا أُريد أن ألقاكِ بصورة صحيحة.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن اسمكِ سيعلَق في ذهني بأوّل جملة سمعتُها منكِ، وهذه الفتاة لم تعد أنتِ بعد الآن.

ـ إذًا ماذا ستناديننني؟

ـ سأناديكِ «أَنِيسَة»، يليق بكِ الأُنس.

ـ وأنا سأُناديكِ «لَطِيفَة»، يليق بكِ اللطف.

ضحكتُ ولم أستطع التفسير لها؛ فضَحِكَت معي لِتؤانسني، وها قد صارت «أَنِيسَة» كاسمها.

قامت وقمتُ، نوديَ على أرقامنا في الوقت ذاته، كلٌّ في نافذة، سألتني على عُجالة قبل أن تُفارِق:

ـ هل ستبحثين عنّي؟

بصدقٍ أجبتُها:

ـ في كلّ تجمّع أقف فيه؛ سأُنادي على اسمكِ بأعلى صوتي لعلّي ألقاكِ فأعرفكِ للمرة الأولى.

ـ وأعرفكِ للمرة الأولى.

ودَّعتني وودَّعتُها، هاهُنا ذَهبَت الفتاة عنّي ولَم تَذهَب منّي، لَم أهتمّ بالتوجّه لنافذة الطلب، عُدتُ لكرسيّي؛ فتحتُ حاسوبي المحمول، ظهر أمامي ملفّان مفتوحان، أمّا الأوّل فكان للعمل..

انتهيتُ من مراجعته والتي كانت قراءته أعجب ما يكون لنفسي، وأرسلتُه لدار النشر؛ فأنا المراجعة اللغوية وهذا كان عملي الأخير.

أمّا الملف الثاني والذي كتبتُه منذ شهرٍ وقرأته مئة مرة؛ فتحتُه، أعدتُ قراءته للمرة المئة وواحد، لكن بعينٍ مختلفة هذه المرة...

«رجاءً، لا تحزنوا منّي ولا تحزنوا عليّ، لكلِّ أجلٍ كتاب، والله يعلَم أنّي لم أُرد الموت، لكن ضاقت نفسي على نفسي؛ حتى لم أعد أراها إذا نظرتُ أبدًا بالمرآة؛ فوجب الرحيل».

وقفتُ خمس دقائق كاملات أمام الرسالة المكتوبة بالملف؛ ابتسمتُ وأنا أتذكّر جملة الفتاة:

«عينكِ هذه التي تنظرين لي بها؛ أحببتُها أكثر من عيني».

لم أدرِ كيف كنتُ لأفعل لو لَمْ ألقَ تلك الفتاة السمراء ذات النمش «أَنِيسَة»؟

تساءلتُ:

«مَن منّا يا ربُ المقصود؟

هل أرسلتَها إليَّ؟!

أم أرسلتني إليها؟!

من منّا أنقذَت الأخرى؟!»

أخذتُ نفسًا قويًّا ثُمَّ مددتُ أصابعي إلى أزرار الحذف؛ مسحتُ الرسالة كلّها، حرفًا فحرفًا، وبكيتُ دمعًا فدمعًا.

انتهى

فهرس المحتويات

وَصِيَّة 5

أَمْسِك عَلَيْك قَلْبَك 7

﴿ گ گ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ 10

«ما حالكم مع القرآن؟» 14

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ 17

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ 25

«أَعجَميّةٌ قُلُوبُنَا» 29

«تُرى.. هل يشعر الحزنُ بالحزنِ حين يأتينا؟!» 38

«البيوت تقوم على صبر النساء ورضا الرجال» 41

«وتجبّر فيها عبادٌ على عبادِ الله أكثر» 52

«ثُمَّ ينفرط العقد» 55

«الإنسانيّة المنطوقة في الأفعال» 58

«دُعَاءٌ لا رَيبَ فِيهِ» 65
«عَسَّلَكُم الله» 68
«ما يعنيه أن تكون إنسانًا؟!» 77
«مِن حقِّنا أن نُذنِب!» 81
«يا هذا، خالفتَ أمر نبيّنا إن أنتَ أحزنتَ النّساء» 84
«على الله السُّقيا» 92
«كيف تنزل الكلمات على القلوب؟» 95
فهرس المحتويات 103

أَمسِك عَليكَ قَلبَك

كان كُلَّما سارَ في الطريقِ انسَلَّتْ نَفسُهُ من نَفسِهِ؛ فنبتَ من خلفِهِ وردٌ أبيضُ له ملمسُ الشوكِ ورائحةُ الياسمينِ، قال القومُ مِن حوله: "إن مرضَه لا شفاء منه، وأنّه تسمَّمَ يومًا بحديثٍ صُبَّ عليهِ من حبيبٍ؛ فشربَهُ على الإفطارِ وكان من قبلُ صائمًا، ومن يومها لا يَعرفُ عن قلبهِ إلَّا أنَّه سُكِبَ منه كلُّه ذاتَ غَفلةٍ".

998-977-278-912-2

01012355714 - 01152806533
elbasheernashr@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.net

دار البشير